الصدمة العربية الثانية

من عبد الناصر إلى صدام

دكتور

إبراهيم دسوقي أباظة

المكتب المصري الحديث

www.almaktabalmasry.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا ۞
رَبَّنَــا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِــنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾

سورة الأحزاب ٦٧-٦٨

الصدمة العربية الثانية

من عبد الناصر إلى صدام

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى يوليو ٢٠٠٣

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت
ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات
الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماً

المكتب المصرى الحديث

www.almaktabalmasry.com
almaktabalmasry@hotmail.com

القـــــاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شـــارع نوبـــار المنشـــية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

قبل أن تقرأ

لست مؤرخاً... ولن أكون... ولا يزيد قدري عن مواطن ساقته الظروف إلى معترك الحياة السياسية منذ الصغر... وشهد في ساحتها الكثير من الأحداث والكوارث القومية وعانى الكثير من الضربات وتنقل بين المعتقلات المحلية والمنافي الأجنبية ... وقد أغرتني هذه الرحلة الشاقة في المرحلة الشاقة من حياة هذه الأمة... أن أسجل ما شهدت... وأن أحلل ما عرفت... وأن أنقل للناس انطباعاتي... وتوقعاتي بلا زواق ولا تلوين لكل ما عايشته من أحداث... آملاً أن يكون في تجربتي المتواضعة ما يعين على استكشاف الحقائق... واستلهام الدروس... فأخطر آفاتنا هو إخفاء تجاربنا... ودفن أخطائنا... ثم المضي إلى المستقبل بأعين معصوبة لا ترى من الطريق عثراته فلا نلبث أن نتردى في الخطأ من جديد !!!

وقضية الحرب على العراق... هي – ولاشك – أحدث فواجعنا الكبرى... بل هي فجيعة ما كان يمكن أن تحدث لو أننا تعلمنا شيئاً من فواجع الماضي وكوارثه... فقد مرت بأمتنا العربية نوازل ومحن منذ الخمسينات من القرن الماضي... لم تسجل وقائعها بدقة... ولم تكشف أسبابها بأمانة وصدق... بل ظل التستر على حقائقها... وحراسة أخطر

أسرارها... فريضة واجبة على الحكومات المتتابعة... وهكذا حرمت شعوبنا من الاستفادة بدروس الماضي وتجاربه... وظلت نائمة على أوهام وأكاذيب كان يجب أن تسقط وأن تتلاشى لولا الملفات المغلقة والإعلام المبرمج الذي ظل أميناً على تلبيس المخازي ثوب الأمجاد... والهزائم ثوب الانتصارات ولا أخال أن ما وقع لعراقنا كان يمكن أن يقع بهذا الأسلوب السهل البسيط الذي استخدمته الولايات المتحدة لو كان في هذا العالم العربي شعوب تحكم وتتسيد وتملك مصيرها... فالقضية في النهاية وفي البداية أيضاً قضية الديمقراطية التي غابت تحت سنابك المستبدين وأضرابهم ممن حكموا الدول العربية بمباركة الولايات المتحدة وما زالوا يحكمون فقد طفحت كل الشرور والمكاره من صلب هؤلاء الحكام... وانطلقت التيارات الإسلامية والقومية من صميم طغيانهم تبحث عن بديل بالعقل والمنطق أو بالعنف والرصاص... ودخلنا جميعاً إلى عرين الأسد الأمريكي نبحث عن الخلاص... ولا خلاص إلا بيقظة الشعوب وتمسكها بحقها في الحرية والديمقراطية !!!

وفي المقاطع التالية أسوق للقارئ خلاصة انطباعاتي حول الصدمة العربية الثانية أبدؤها بالصدمة العربية الأولى لأنتهي إلى المقدمات التي مهدت للصدمة العربية الثانية، ومكنت من الإجهاز على العراق في أيام معدودات ثم نحاول استخلاص الدرس حتى لا يدفن من جديد تحت ركام التضليل الإعلامي المركز !!

تمهيد
"من الصدمة العربية الأولى إلى الثانية"

في زمن تاريخي وجيز نزلت بهذه الأمة صدمتان!!! كانت الصدمة الأولى هزيمة جيوشنا في الخامس من يونيو ١٩٦٧ على ثلاث جبهات واحتلال إسرائيل لأراضي دول عربية ثلاث!!! وكانت الصدمة الثانية بعد خمس وثلاثين سنة من الأولى بسقوط بغداد... واختفاء صدام واحتلال الولايات المتحدة للعراق كله!!! وبين هاتين الصدمتين علاقة وثيقة إذ لولا دفن حقائق الصدمة الأولى... ما وقعت أصلاً الصدمة الثانية!!!

الصدمة الأولى كانت وراءها أسباب ودوافع... وكانت تحيطها توجهات وسياسات... وكانت تحركها طموحات وأطماع... وهكذا كانت الصدمة الثانية مع فروق جوهرية في الزمان والمكان!!!

كان الهدف المعلن في الصدمتين واحداً: الوحدة العربية والنهضة العربية وكانت الوسيلة: زعامة قوية تقود العالم العربي إلى هذا الهدف... وتجسدت الزعامة أولاً في شخص عبد الناصر الذي حملته الجماهير على الأعناق في بداية الستينات وتوجته قائداً ملهماً...

وتوسمت فيه كل آمالها في غد مشرق!!! وكان الرجل قادراً بقوة إعلامه وسحر شعاراته على اختراق قلوب الملايين... والتعبير عن أمالهم في سحق الاستعمار... واسترداد فلسطين... وتوحيد العالم العربي... وفعلاً – وفي زمن قياسي – خرج المستعمر من مصر بعد ثورة يوليو بعامين... وبعدها بأربع سنوات أممت قناة السويس وفشل العدوان الثلاثي على مصر!!! وطارت عقول الجماهير العربية بهذه الانتصارات الساحقة... وصار عبد الناصر معبود الملايين في كل أرجاء الوطن العربي!!!

وجاء السوريون ينشدون الوحدة... وكانت نواتها الأولى الجمهورية العربية المتحدة!! ولكن التصوير الذي قدمه الإعلام العربي لكل هذه الوقائع والأحداث لم يكن دقيقاً... ولم يكن صادقاً... بل كان يحمل في ثناياه زخماً كبيراً من الأكاذيب والادعاءات... وكان يخفي في نفس الوقت خسائر كبيرة وإخفاقات هائلة نتجت عن أخطاء في التوجه... وخطايا في التدبير والتنفيذ... فقد ترتب على معاهدة الجلاء المصرية البريطانية والتي وقعها جمال عبد الناصر منفرداً في ٢٧ يوليو ١٩٥٤ ضياع وحدة وادى النيل وانفصال السودان عن مصر... فلم يكن عبد الناصر مخولاً بالتوقيع من أي سلطة شعبية أو حزبية في مصر بل انفرد بالتوقيع على المعاهدة بعد أن سحق كافة القوى السياسية المصرية واستبعد اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية في ذلك الحين والذي كان يعارض بشدة توقيع مثل هذه المعاهدة!!!

ونتج عن العدوان الثلاثي على مصر بسبب تأميم قناة السويس أخطاء عسكرية جسيمة فضلاً عن سقوط السيادة المصرية على مضايق العقبة وفتح الملاحة أمام إسرائيل في البحر الأحمر وتأسيس ميناء إيلات ومد خطوط أنابيب لنقل البترول عبر إسرائيل إلى البحر الأبيض وفوق ذلك كله تهديد أمن الدول العربية بالتواجد العسكري البحري لإسرائيل في البحر الأحمر وحتى باب المندب!!!

هذه الخسائر القومية الكبرى من كسر الحصار البحري على إسرائيل إلى ضياع السيادة العربية على خليج العقبة تم إخفاؤها بالكامل عن الرأي العام العربي... وجرى دفنها تدريجياً تحت ركام الإعلام المصري الذي لم يكف عن ترديد الانتصارات واختراع البطولات حول هزيمة جيوش ثلاثة أمام جيش عبد الناصر... وإخفاء حقيقة أن وقف العدوان الثلاثي على مصر لم يكن إلا بأوامر من رئيس الولايات المتحدة الجنرال أيزنهاور الذي أمر حلفاءه إنجلترا وفرنسا بوقف الحرب والانسحاب فوراً من مصر!!! كما أمر إسرائيل بالبقاء في سيناء إلى أن يؤمن حدودها مع مصر ببوليس دولي... وكان هذا التأمين الذي قبله عبد الناصر راضخاً... يعني إنهاء السيادة المصرية على خليج العقبة والسماح لإسرائيل بحرية العبور في الخليج بعلم إسرائيلي وفي قناة السويس أيضاً ولكن تحت أعلام دول أخرى!!!

هذه الخسائر القومية الكبرى ظلت خافية على الشعب المصري والشعوب العربية من حرب السويس عام ١٩٥٦ وحتى أزمة مايو عام ١٩٦٧ عندما فوجئ الرأي العام بأن مضايق العقبة كانت مفتوحة وأن

الملاحة الإسرائيلية كانت حرة منذ أكثر من عشر سنوات وأن ميناء إيلات كان الثمرة اليانعة للعدوان الثلاثي الذي سببه تأميم قناة السويس!!! بقى أن يعلم القارئ أن عقد امتياز قناة السويس كانت نهايته عام ١٩٦٨ أي أن قناة السويس كانت ستعود إلى مصر في هذا التاريخ خالصة من أي تعويضات بينما دفعت مصر بسبب التأميم خمسمائة مليون دولار تعويضاً للشركة العالمية صاحبة الامتياز!!! وهذه خسارة إضافية لم يعلم عنها الشعب المصري شيئاً!!! ثم كانت الوحدة المصرية السورية... ولم يعرف الرأى العام شيئا عن الدوافع الحقيقية لهذه الوحدة فلم تكن نجومية عبد الناصر التى تألقت بفضل وقف العدوان الثلاثى هى التى دفعت بالسوريين إلى طلب الوحدة مع مصر ولكن أيضا الخطر الشيوعى الذى كان يهدد سوريا من الداخل والذى حفز الولايات المتحدة على تشجيع عبد الناصر للاتحاد مع سوريا أملا فى سحق القوى الشيوعية هناك وقد نجح الرجل إلى حد بعيد فى ذبح الشيوعيين وأحزابهم وفرض سيطرته الكاملة على الشعب السورى...

وكان الانفصال المدوي لهذه الوحدة وبأسلوب فج غليظ... ولم يعرف الرأي العام شيئاً عن أسباب الانفصال سوى أنه مؤامرة إمبريالية رجعية حاكتها الشركة الخماسية بقيادة الدكتور مأمون الكزبرى... ولكن أحداً لم يسمع شيئاً عن مساخر الحكم المصري في سورية وانتقال دولة المخابرات إلى هناك... وسلسلة الإعتقالات ضد قوى المعارضة السورية والمؤامرات التي قادها عبد الحميد السراج رجل عبد الناصر في سورية ضد الملك حسين في الأردن... وضد الملك سعود في السعودية... وضد المعارضين لسياسات عبد الناصر في لبنان... لم

يكشف أحد عن كل هذه المهازل والمساخر بينما كانت إسرائيل تجرى في أمان واطمئنان عمليات تحويل مجرى نهر الأردن على مرمى المدفعية السورية دون أن تنطلق منها في عهد الوحدة طلقة واحدة!!!

وفجأة وفي أوائل عام ١٩٦٢ استيقظ الشعب المصري ليجد طلائع جيشه وقد توجهت إلى اليمن لمؤازرة انقلاب عبد الله السلال ضد إمام اليمن... ومن قوات خفيفة إلى قوات ثقيلة إلى طيران ضارب وخلال أقل من عام كانت خيرة قواتنا المسلحة متورطة في قتال ضار على أرض اليمن!!! وكان التبرير الذي أطلقه عبد الناصر هو أن الطريق إلى فلسطين يمر باليمن!!! ولم يقل أحد في ذلك الحين أن تحويل خيرة قواتنا المسلحة إلى اليمن يؤدى إلى إضعاف جبهتنا الشرقية مع إسرائيل... ويفتح أمامها الطريق إلى القاهرة!!!

لم يقل أحد ذلك... ولم يجرؤ إنسان على انتقاد هذه السياسة وفي أحلك المراحل التي تمر بها الأمة العربية... بل شهدنا طبلاً وزمراً وإشادة بهذه الحملة العسكرية البطولية التي تمهد الطريق لاستعادة فلسطين!!!

وكانت هذه الحملة فى أساسها بتشجيع أمريكى ومؤازرة أمريكية... فقد كان عبد الناصر يعيش على قمح المعونة الأمريكية منذ عام ١٩٥٨... وكانت حراسته للمصالح الأمريكية فى المنطقة منذ حرب السويس مثار إعجاب الإدارة الأمريكية... فلم يحرض ولو مرة واحدة على ضرب المصالح الأمريكية وأهمها شركات البترول الأمريكية العاملة فى العالم العربى رغم حملاته الشديدة على الاستعمار

والإمبريالية... ورغم هجومه الشديد على الرجعية والرجعيين.. ورغم دعوته المتواصلة للوحدة العربية، ومحاولاته الفاشلة لتحقيقها بالتآمر والانقلاب... وكان الوجود العسكرى المصرى فى اليمن ضروريا للاستراتيجية الأمريكية التى ترى ضرورة مواجهة المد الشيوعى السوفيتى فى عدن بجنوب اليمن وملء الفراغ الذى خلفه خلع الإمام البدر وسقوط النظام الملكى... إلا أن ضربة الانفصال، مع التورط المصرى فى اليمن قد صاحبها توغل النفوذ السوفيتى فى مصر خاصة بعد موجات التأميم والمصادرة وإطلاق صراح الشيوعيين المصريين وانخراطهم فى الاتحاد الاشتراكى، والسعى فى بناء الاقتصاد والمجتمع على الأسس الماركسية اللينينية... وشهدت المرحلة من يوليو ١٩٦١ حتى يونيو ١٩٦٦ توترا خفيا فى العلاقات المصرية الأمريكية، انتهى بقطع المعونة الأمريكية عن مصر... واضطر عبد الناصر إلى أن يبيع سرا جزءا من رصيد الاحتياطى الذهبى لمصر ليشترى قمحا ويسدد ديونه لصندوق النقد الدولى كما أعلن الدكتور كمال الجنزورى يوم ١٩٩٨/١٢/١٦ أمام مجلس الشعب المصرى.

لقد كان واضحا للخبراء أن الولايات المتحدة وورائها إسرائيل تسعى للإجهاز على عبد الناصر الذى أصبح يشكل خطرا داهما على مصالحها الإستراتيجية وهنا بدأ العد التنازلى بتحرش إسرائيل بسوريا فى شتاء ١٩٦٧ ثم الإيهام بوجود خطة إسرائيلية بضربها فى صيف ١٩٦٧.

وهنا انبرى الإعلام المصرى يهدد ويتوعد إسرائيل بالإبادة والتدمير إذا حاولت الاعتداء على سوريا.

وفي ضجيج هذا الإعلام المتسلط... الذي أججه صوت العرب والصحافة المصرية ودعمته العديد من الصحف اللبنانية سقط علينا فجأة قرار تركيز القوات المصرية في سيناء... كان ذلك يوم ١٥ مايو ١٩٦٧... وكان التبرير الرسمي أن هناك تهديدًا إسرائيلياً لسورية... وأن حشوداً عسكرية تقف عند حدودها!!! وتدفقت القوات المصرية عبر قناة السويس لتتمركز في عرض سيناء ثم أعقب هذا الاستدراج الواضح إلى فخ سيناء أن طلب عبد الناصر سحب البوليس الدولي ثم أعلن فجأة إغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الإسرائيلية!!!

وكانت كل هذه القرارات سبباً في تعبئة الرأي العام العالمي ضد مصر... وإقناعه بحق إسرائيل في شن حرب وقائية ضد الدولة التي تريد مهاجمتها والتي تسعى إلى خنقها بحصار بحري!!!

وعندما استشعر عبد الناصر الخطر بعد كل هذه العنتريات والخطب الرنانة التي هاجم فيها إسرائيل والولايات المتحدة... أراد أن يتراجع... وأن يرسل مبعوثاً إلى الولايات المتحدة للتفاوض وتهدئة الموقف... كان الوقت قد فات... وكان القرار قد أُتخذ بضربه في صبيحة اليوم الذي قرر فيه إرسال مبعوثه زكريا محيي الدين إلى واشنطن!!!

والبقية يعرفها القارئ... فقد كانت الصدمة في صبيحة الخامس من يونيو وانتهى كل شئ قبل الظهيرة... فقد ضرب سلاحنا الجوى

كله... وأصبحت سماؤنا مفتوحة للطيران الإسرائيلي... ولم يبق أمام العدو سوى مطاردة فلول الجيش المصري المنسحبة إلى غرب قناة السويس!!!

هذه التوجهات السياسية والتداعيات الإقليمية التي أدت إلى صدمة الخامس من يونيو... تقودنا إلى حقيقة هامة وهي أن كل هذه التوجهات والتداعيات لم تسجل بأمانه وصراحة... ولم يرصدها ويحللها سوى الأعداء والخبراء ولم يجرؤ كاتب أو سياسي أن يغوص في صلب الأحداث وأن يحلل أو يعلل الأسباب والدوافع التي أدت إليها!!!

فقد ضرب حصار من الصمت الجميل حول كل الحقائق وأصبحت الوقائع المتصلة بهذه الأحداث من الأسرار الكبرى التي لا يجوز مناقشتها أو حتى الاقتراب منها، فلم يجر تحقيق واحد في أسباب انكسار الجيش في سيناء إبان عدوان ١٩٥٦... ولم يجر تحقيق واحد في أسباب انفصال سورية... ولم يجر تحقيق واحد في أسباب تصدير جيشنا إلى اليمن... بل ولم يجر تحقيق واحد في أسباب هزيمة الخامس من يونيو!!!

والسبب في هذا التعتيم واحد دائماً... وهو أن الذين صنعوا هذه الأحداث... لم يسقطوا عن الحكم... بل ما زالوا يتداولون السلطة في إطار النظام المسئول عن الهزيمة... وأصبح من المستحيل محاكمتهم أو محاكمة النظام الذي تسبب فى ذلك... وصار التعتيم والتلفيق ومحاولة

تجاوز الماضي ودفن ملفاته من أكبر الاهتمامات التي تجتهد أجهزة النظام في إدراكها!!!

وفوق هذا الركام جرى التحول من نظام الحزب الواحد إلى التعددية الحزبية... ومن القطاع العام إلى القطاع الخاص ومن الاشتراكية إلى الليبرالية إلخ إلخ... ولكن صار هذا التحول موؤوداً بركام الماضي... عاجزاً عن أن يثمر تقدماً حقيقيا نحو المستقبل!!!

الحقائق الغائبة

وصدر قرار جمهورى عام ١٩٧٦ بتشكيل لجنتين:

أولهمـــا: لجنة تحقيق هزيمـــة يونيـــــو

وثانيهما: لجنة كتابة تاريخ ثورة ٢٣ يوليو

وتعلقت الآمال بهاتين اللجنتين الحكوميتين، إلا أنهما لم يتقدما خطوة واحدة فى استكشاف الحقيقة.. فقد كانت هناك عشرات التساؤلات حول الكثير من الأحداث تنتظر الإجابة..

وكان وراء كل هذه الأحداث سبب أعم وأشمل هو الحرب الباردة التى اكتوى العالم الثالث كله بنارها.. وكان العالم العربى بوجه خاص من أشد مناطقها ضراوة وقوة ولم تكن الدول العربية سوى ترس صغير فى آلة هذه الحرب أما النظم الحاكمة فقد كانت مجرد قطع شطرنج تحركها القوتان المتصارعتان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى..

كانت الولايات المتحدة تدرك أن مصر مفتاح العالم العربى كله ومن هنا كانت أسبق إليها من الاتحاد السوفيتى وكان من المستحيل أن

تتعامل الولايات المتحدة مع النظام الملكى الذى كان على وشك الإفلاس ولا مع الوفد الذى كان يقود المعركة الوطنية ضد الاستعمار وضد إسرائيل ولا مع الإخوان المسلمين الذين كانوا ينهاضون المصالح الغربية فى المنطقة.. وكان المرشح الوحيد للتعامل مع الولايات المتحدة هو المؤسسة العسكرية التى تملك القوة والانضباط فى مواجهة التيارات الوطنية التى تتلاطم فى الساحة الوطنية المصرية

ولقد كانت أهداف الولايات المتحدة الحقيقية هو تحجيم مصر... وتثبيت أقدام إسرائيل فى العالم العربي ولم يكن خوفا ولا مصادفة ألا تحرك بريطانيا جيوشها المرابطة فى منطقة القناة لإنقاذ النظام الملكى من انقلاب الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كما لم يكن مصادفة ولا احتراما أن يتنازل الملك عن العرش وأن يرحل فى احتفال مهيب ومراسم رائعة يشارك فيها الضباط الأحرار وعلى رأسهم اللواء محمد نجيب ليؤدوا التحية العسكرية للملك المخلوع فى خشوع وإجلال بينما تطلق المدفعية إحدى وعشرين طلقة إيذانا برحيله على اليخت الملكى المحروسة!!!

لقد كانت الولايات المتحدة وراء كل هذه التحولات والترتيبات والتدابير التى مكنت من مرور الانقلاب... وسيطرة ضباط يوليو على الحكم... وكان تعاونها مع بريطانيا بخبرتها ودهائها وبدت أولى ثمار هذا التعاون كما بينا فى اتفاقية الجلاء المصرية البريطانية التى أدت إلى تمزيق وحدة وادى النيل وحرمان مصر والسودان من مجالهما الحيوى الضرورى للتكامل والتنمية.

وكانت الولايات المتحدة وراء الإنذار الذى وجهه الرئيس إيزنهاور لبريطانيا وفرنسا بضرورة انسحاب قواتهما من مصر. فقد أنقذ هذا الإنذار ثوار يوليو من أيدى البريطانيين والفرنسيين وكانت الولايات المتحدة أيضا وراء رفض انسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء إلا بعد اعتراف مصر بحق المرور الحر للسفن الإسرائيلية فى خليج العقبة وقناة السويس. وكانت هذه الخطوة من أهم الخطوات التى مكنت إسرائيل من فرض سيادتها على خليج العقبة وتأسيس ميناء إيلات وتهديد أمن البحر الأحمر!! وكانت الولايات المتحدة أيضا وراء تشجيع عبد الناصر للوحدة مع سوريا لضرب الشيوعيين السوريين المتحفزين للقفز إلى الحكم... وأخيراً كانت الولايات المتحدة وراء تشجيع عبد الناصر بالتدخل فى اليمن لإنقاذ اليمن الشمالية من المد الشيوعى القادم من اليمن الجنوبية!!

ولكن رغم كل هذا التعاون المصرى الأمريكى... ورغم معونات القمح الأمريكى المتدفق على مصر فقد كان الاتحاد السوفيتى حاضرا فى الساحة وكان تغلغله فى مصر واضحا منذ رفض الولايات المتحدة عام ١٩٥٦ تمويل بناء السد العالى... فقد أبدى الاتحاد السوفيتى استعداده لبناء السد العالى كما كان وراء التحريض على تأميم قناة السويس بدعوى استخدام دخل القناة فى تمويل عمليات البناء!!!

ومنذ الشروع فى بناء السد العالى والتغلغل السوفيتى يتزايد فى مصر... وقد لعبت الأحزاب الشيوعية المصرية أدواراً هامة فى التمهيد لهذا التغلغل... حتى أثمر فى النهاية قوانين يوليو الاشتراكية!!!

لقد كانت مفاجأة التحول إلى الاشتراكية الناصرية بداية صراع طويل مع الإدارة الأمريكية التى رأت فى هذا التوجه خطراً على مصالحها فى الشرق... فوراء هذا التحول كان الاتحاد السوفيتى والأحزاب الشيوعية العربية التى تدور فى فلكه... وكان دخول مصر إلى حظيرة النفوذ السوفيتى معناه تهديد مباشر وأكيد للمصالح الأمريكية بل الغربية فى العالم العربى...

وهنا بدأت سلسلة المحاولات الأمريكية لجذب عبد الناصر خارج حلقة النفوذ السوفيتى منذ انفصال سوريه وتورطه فى اليمن... ولم تجد هذه المحاولات فقد أعلنت الأحزاب الشيوعية حل نفسها والاندماج فى الاتحاد الاشتراكى العربى الذى أسسه عبد الناصر... وبدأ الزحف الثقافى الشيوعى والدعاية الماركسية تطغى على كافة أجهزة الإعلام حتى بلغت ذروتها عام ١٩٦٦... عام اليأس الأمريكى من إعادة عبد الناصر إلى حظيرة السياسة الأمريكية... فكان قرار قطع المعونة الأمريكية والإعداد لضربة تأديبية ووقائية تجهض المكانة التى اكتسبها عبد الناصر والمجد الذى بناه فى العالم العربى!!

****

اليقظة الإسلامية :

ومن زاوية أخرى كان لهزيمة يونيو وقع آخر لم يتنبه إليه العديد من المعلقين فقد استيقظ على وقع الصدمة مارد نائم... برزت ملامحه في بداية السبعينات... عندما تحركت النخب المثقفة في طول العالم الإسلامي وعرضه تبحث عن الأسباب والدوافع التي أدت إلى كارثة

الخامس من يونيو... وكان في الطليعة أهل الحل والعقد من فقهاء المسلمين... ومن ورائهم نفر غفير من المفكرين الإسلاميين ورواد الإسلام السياسي الذين روعتهم النظم الشمولية العربية ونكلت برموزهم فقد وجد هؤلاء من خلال مؤتمراتهم وكتاباتهم تفسيراً مقنعاً للكارثة وهو التخلي عن الهوية الإسلامية بكل قيمها ومضامينها الحضارية واستعارة هوية دخيلة لفقت عناصرها من شتات الفكر الإشتراكي والشيوعي... وقد وجدت هذه الصحوة المفاجئة أصداء كبيرة في دول العالم الإسلامي خاصة بعد أن احتضنتها بعض الدول العربية وتسابقت في تنشيطها ودعمها بالمؤتمرات والندوات والنشرات حتى اشتد عودها وأصبح تيارها الصاعد يفرض وجوده على الساحة السياسية فقد عانت هذه الساحة منذ هزيمة يونيو فراغاً هائلاً في الفكر وفي التوجه... ولم تعد الجماهير العربية ترى في الاشتراكية الناصرية أو البعثية طريق الخلاص من الفقر والتبعية... ولا طريق النصر والعزة القومية... فقد هدمت صدمة الهزيمة هذا البناء الكرتوني من الفكر والممارسة وفتحت أمام التيار الإسلامي بكل روافده أبواباً واسعة للتمدد والانتشار وتقديم البديل القادر على إنقاذ الأمة العربية والإسلامية من هوان الصدمة الهائلة التي نزلت بها!!!

هكذا بدأ الإسلام السياسي يستعيد حضوره في الساحة العربية... في الوقت الذي بدأت بعض النظم الشمولية العربية تداعبه وتخطب وده... وتحاول استخدامه لضرب فلول اليسار الشيوعي... وأيضاً في الوقت الذي بدأت فيه الولايات المتحدة تجد فيه ضالتها في حربها ضد الاتحاد السوفيتي بأفغانستان...

نجم القومية الجديد:

ومن حرب رمضان إلى كامب ديفيد تسلل أحد الرفاق البعثيين إلى السلطة في العراق ليقول لكل العرب أبشروا فالحل معي وليس مع المهزومين المستسلمين... الحل مع البعث العظيم الذي زرعه ميشيل عفلق وصلاح البيطار في سورية ثم تبناه صدام في العراق والأسد في سورية دستوراً ومنهجاً للدولة وأملاً تنتظره الجماهير العربية الرافضة لكامب ديفيد... المتطلعة لميلاد بطل جديد.... صدام حسين التكريتي زعيم الرافضين " للاستسلام السادات " وقائد الداعين إلى مواصلة المسيرة الوحدوية التقدمية الظافرة!!!

هكذا بدا صدام حسين للجماهير العربية القوة والفتوة والمال والسلطان... وبالتالي القدرة على تدارك ما فات... وتحقيق الآمال التي تنشدها الأمة العربية!!!

كانت أجهزة الإعلام البعثية خلال هذه الأحقاب غاية في روعة الأداء... فقد تمكنت في سنوات قليلة من مطاولة الإعلام المصري بل والتفوق عليه ... وتألفت الأناشيد والمسرحيات وتألق الشعراء وتسابقوا في وصف صدام حسين ... ورصدت مئات الملايين من الدينارات العراقية للدعاية للرجل خارج العراق... واشتريت أقلام كثيرة في كافة أقطار العالم العربي لامتداح صدام ومباركة سياسته... وعقدت مئات المؤتمرات تحت عناوين كثيرة لتنتهي بالإشادة بصدام المنقذ والمحرر والموحد للعالم العربي... وقد اشتد عود هذا الإعلام

وتعالت أصواته عندما وقع الانفصال بين البعثين السوري والعراقي وجرى الصدام العلني والسري بين النظامين... وتحالفت سورية الأسد مع إيران نكاية في عراق صدام ... وتوطدت أواصر التحالف بعد اندلاع الحرب العراقية الإيرانية... ورغم ذلك ظلت العراق الأعلى صوتاً... والأقوى نضالاً في عقول الملايين العربية وأخذ صدام يلعب على النعرة العرقية بين فرس وعرب وعلى الاختلافات الدينية بين شيعة وسنة... وصارت أمواله تبدد على المناصرين لهذه الحرب في كافة المحافل الإعلامية والمهللين لانتصاراته الوهمية على الجيش الإيراني... وكانت أنباء الصواريخ العابرة من العراق إلى طهران وأخبار أسلحة الدمار الشامل تحتل مكانها البارز في إعلام صدام... وفي الإعلام العربي... الذي ساند النظام العراقي ظالماً ومظلوماً في حرب لم تعرف أسبابها الحقيقية... وإن عرفت نتائجها المدمرة على العراق وإيران!!!

هذا التضليل الإعلامي المكثف سانده في عرض الساحة العراقية عمل إرهابي منظم قاده حزب البعث العربي الاشتراكي بخلاياه وتنظيماته السرية والعلنية... فقد كان أعضاؤه المنتقين على أساس الثقة هم عيون صدام الساهرة وسيوفه الباترة في كافة مواقع المسئولية السياسية والاقتصادية والاجتماعية... وكان تسلطهم وإرهابهم للجماهير العراقية يقابله امتيازات هائلة لا ينعم بها المواطن العادي... وكانت سلطاتهم كافية لإلقاء أي إنسان في غياهب السجون... أو قتله أو تشويهه... وقد لعب هذا الحزب دوراً بارزًا في تكميم الأفواه... وتلوين الحقائق... وإخفاء عورات النظام والتستر على جرائمه

وإخفاقاته... وإطلاق أسماء صدام الحسنى على سيد النظام وقائده تأسياً بأسماء الله الحسنى!!!

وهكذا تأسست مدرسة أعظم بكثير من مدرسة صوت العرب وأقوى بكثير من صواريخ القاهر والظافر والناصر!!! فقد لبس الرجل القبعة الأوروبية وأطلق النار من البندقية... وركب الفرس والمروحية وتلبس بألوان من العبقرية... وصدق الكثير من أهل النخبة أنهم أمام ظاهرة خارقة سوف تعيد للعرب أمجادهم وتحيي أمواتهم... ولم ينفع في تبديد هذا الوهم القاتل غزو صدام للكويت... ولا طرده منها خائباً مدحوراً... بل ظلت صورة صدام البطل المنقذ ماثلة في أذهان الملايين... وصارت قصصه في إنتاج الصواريخ العابرة وأسلحة الدمار الشامل تروج على صعيد دولي... وظل هو صامداً رغم كل الحصار الدولي ورغم كل البلاء الذي نزل بالشعب العراقي... فقد كان الجميع في انتظار الفرج... والغوث الكبير الذي يخفيه صدام تحت عباءته!!!

****

الكويت والدور المصرى:

وجاء الغوث في غزو صدام المفاجئ للكويت... واستيلائه على مقدرات الشعب الكويتي... وصارت الولايات المتحدة حيال وضع جديد يستلزم تعاوناً وثيقاً مع الدول العربية... فحليفها الإستراتيجي إسرائيل لا يمكن أن يلعب دوراً مؤثراً في ردع صدام وإجباره على الانسحاب من الكويت... ومن هنا كان التجاء الإدارة الأمريكية إلى

مصر... فقد برزت في الساحة كأفضل دولة عربية يمكن أن تؤدي الدور المناسب لطرد صدام من الكويت... وكان رد الفعل المصري أنياً على رفض احتلال الكويت ومطالبة صدام بالانسحاب الفوري منها... ثم كان التعاون الكامل بين مصر ودول الخليج العربي... وقد نشطت الدبلوماسية المصرية نشاطاً فائقاً خلال هذه المرحلة... ونجحت في تجميع أصوات عدد من الدول العربية على مناصرة الكويت كما تمكنت مصر من استمالة سورية للمشاركة العسكرية في تحالف مصري سوري خليجي أمريكي لطرد الجيش العراقي من الكويت إذا أصر صدام على عدم الانسحاب!!!

ورغم جمود ميثاق جامعة الدول العربية ونصه على ضرورة وجود إجماع عربي على كل قرار يصدر من الجامعة... ورغم عدم مواجهة ميثاق الجامعة العربية لحالة غزو دولة عربية لدولة عربية أخرى واحتلالها بالقوة... فقد برع بعض رواد الدبلوماسية المصرية في اختراع مبدأ الأغلبية... واستصدار قرار من الجامعة يلزم العراق بالانسحاب من الكويت دون قيد أو شرط... وكانت إجابة صدام على هذا القرار العربي بقرار بضم الكويت إلى العراق لتصبح المحافظة رقم تسعة عشر!!!

المهم أن دور مصر قد تعاظم في خضم هذه الأحداث... وتمكنت من الحصول على تأييد ثلاثة عشر دولة عربية وتشكلت قوة عسكرية من مصر وسورية ودول مجلس التعاون الخليجي لمشاركة القوات الأمريكية والبريطانية في الحملة العسكرية لطرد القوات العراقية من

الكويت... هذا الحدث لفت الأنظار إلى دور مصر في المنطقة وقدرتها على أن تلعب أدوار لا تستطيعها إسرائيل... أو بمعني أخر فقد أنهت حرب الخليج الثانية انفراد إسرائيل بالولايات المتحدة واعتبارها حليفها الوحيد في المنطقة العربية... فقد برز على ضوء هذه الأحداث حلفاء وأصدقاء جدد للولايات المتحدة من أهمهم مصر والسعودية ودول الخليج العربي... وصار هذا الموقع الجديد لمصر مثار قلق شديد في كل المنطقة العربية... ولكنه في نفس الوقت مثار قلق لإسرائيل...و كان جديراً بالدبلوماسية المصرية والعربية أن تعيد ترتيب الأوراق من جديد!!! وأن تبحث لمصر عن دور أكبر حجماً واشد تأثيراً في المنطقة العربية... ولكن رغم هذا التحول وهذه الروابط الجديدة مع الولايات المتحدة... ظل التهميش هو الأسلوب المفضل للإدارة الأمريكية... وظلت مصر محددة الدور على الصعيد العربي!!!

ورغم سياسة التهميش التى قادتها الإدارة الأمريكية ضد مصر بوجه خاص... فقد ظلت دار لقمان على حالها... فلا الديمقراطية تقدمت... ولا فلسطين تحررت... بل ظل جوهر النظام ثابتا... وظلت أساليبه وممارساته بعيدة عن المكاشفة بحقائق الهزيمة أمينة على حراسة "تراث" الثورة، بالثرثرة الإعلامية والمهرجانات القومية... التى كان آخرها الاحتفال الضخم بمرور خمسين سنة على ثورة يوليو!!!

الفصل الأول

قبل الصدمة

"كانت المشاهد تتتابع وتتشابك... لتمهد الطريق لحرب خاطفة، تعد لها الولايات المتحدة وحلفاؤها... وكان التمهيد استخبارياً ودبلوماسياً وإعلامياً قبل أن يكون عسكرياً... وكانت محاوره استغلال الغيبوبة العربية والفرقة العربية في هزيمة العراق واحتلاله وفرض المخطط الأمريكي، لإعادة ترتيب الأوضاع في المنطقة العربية... ومع بداية العد التنازلي... كانت محاولة رصد الأحداث... واستكشاف ما وراءها."

لا لصدام ولا لأمريكا

الناس مشغولة جدا بالعراق... وقلقة جدا على الشعب العراقي... والغضب يملأ الحواري والأزقة على الولايات المتحدة لأنها تريد ضرب العراق... وتبرر الضرب بأسباب إنسانية ثم بمصالح قومية أمريكية!!!

والشعب العربي ثائر لأنه لا يستطيع منع الولايات المتحدة من اغتيال الشعب العراقي... ولا يستطيع في نفس الوقت إرغام صدام حسين على قبول التفتيش الدولي أو التخلي كلية عن الحكم!!

والعقل العربي وراء كل هذه "الربكة" لا يستوعب ولا يسترجع أي درس أو أي تجربة... فقد دمره الإعلام الحكومي والتعليم الحكومي والثقافة الحكومية وعطل قدرته على التفكير والتحليل واستخلاص النتائج!!!

فصدام حسين ليس إلا نموذجا شاذا لدكتاتور دموي عرفناه في بعض حكام العالم الثالث... وهو نموذج يسعى إلى امتلاك القوة عن أي طريق ويستهدف توظيفها من أجل بسط السيطرة والنفوذ... ويؤكد الصداميون أن كفاح صدام ليس إلا من أجل تحقيق القوة والمنعة للعرب في عالم مادي لا يعرف إلا لغة القوة والعنف!!

ولو استرجع العقل العربي قليلا جذور صدام السياسية والكيفية التي وصل بها إلى السلطة... ولو تذكر قليلا أسلوبه في حكم العراق لاستطاع أن يصل إلى الأسباب التي دعته إلى شن حرب طاحنة على إيران دامت تسع سنوات وتكلفت بخلاف ملايين القتلى مئات المليارات من الدولارات كانت تكفي لبناء العراق مرتين... وتعليم أبنائه عشرات المرات وربما استطاع العراق بهذه المليارات الضائعة أن يصبح فعلا قوة اقتصادية وصناعية لا مثيل لها في كل المنطقة العربية!!! ولكن الرفيق صدام... أراد أن يعلمنا دروسا جديدة في السياسة والحرب... وحاول أن يبرهن لنا أن فلوس البترول يمكن أن تشتري خبراء في صنع أسلحة الدمار الشامل... وأن تستأجر فنيين في إطلاق الصواريخ وأن تصنع في النهاية مكانا تحت الشمس لقوة عربية فاعلة!!

وعندما فشل صدام في حربه ضد إيران... ولم يحقق أهدافه في إسقاط النظام الإيراني... تحول إلى الكويت... وضربها في ليلة سوداء... ومزق العالم العربي بين موافق ومعارض لإخراجه بالقوة من أراضي الدولة العربية التي احتلها!! والبقية معروفة... فقد كان من الممكن أن ينتهي حكم صدام بعد طرده من الكويت وبعد أن تكبد الشعب العراقي والكويتي خسائر لا تقل عن مئات المليارات من الدولارات ناهيك عن القتلى والجرحى والأسرى الذين بلغوا مئات الآلاف... وناهيك عن العذاب الذي ذاقه الشعب العراقي نتيجة الحصار الدولي الذي فرض عليه والذي أدى إلى هلاك الملايين من أبنائه طيلة السبع سنوات الماضية!!!

ولكن الزعيم صدام لم يقلع أبدا عن لعبته في محاولة شراء القوة بفلوس البترول وذهب البترول فركز جهوده على مواصلة إنتاج الأسلحة الجرثومية والكيماوية وتطوير الصواريخ القادرة على حملها وكانت مصادره الأساسية دول غربية وشرقية... وخبراء من كل صنف ولون... ولم يكن في تصوره أن مخابرات الدول الكبرى تقتفي أثره... وتتابع خطواته... وأن بعض الذين يتعاملون معه... ويقبضون منه الملايين يتعاملون في نفس الوقت مع مخابرات الدول الغربية وأن إسرائيل تجند من أجل رصد نشاطه أكبر طابور من عملائها في المنطقة!!!

لم يكن صدام يعلم ذلك... بل كان يتصور ومازال أنه أذكى الجميع... وأقدر الجميع على خداع الأعداء وامتلاك أسلحة الدمار الشامل في غفلة من هؤلاء الذين يبيعونه مفاتيح صنع هذه الأسلحة!!!

وهذه العقلية هي نفسها التي صورت لحاكم عربي آخر إمكانية شراء قنابل ذرية من الصين!! وتمويل مشروع لسرقة مفاعل نووي من الهند!! وتلك ولا شك تصرفات تنبئ عن قصور في التفكير... وجهل في المعرفة... فصناعة القوة بالجهود الذاتية شيء واستيراد القوة بالشراء النقدي شيء آخر... فالصين والهند وباكستان... لم تنجح في امتلاك أسلحة نووية إلا بالجهود الذاتية وبعد أن عبرت مرحلة الطفولة والاعتماد على الغير في هذه الميادين...

ولكن العقلية التي ميزت جيل صدام تتصور قدرتها على اختراق المراحل... واختصار المسافات لتصل إلى ما تزيد من مصادر القوة التي

تحقق المجد للعرب... والعزة للقومية العربية!! ومادامت تملك المال فإنها تستطيع أن تملك الخبراء وتملك التكنولوجيا... وتملك القوة القادرة على الردع والسيطرة!!!

ولا أدري كيف يغيب عن العقل العادي أن أساس القدرة والقوة والاستقلال في القرار هو الحرية والعلم والمعرفة... هو التربية والتعليم والثقافة في مجتمع يؤمن بالديمقراطية ويحترم حقوق الإنسان... لا مجتمع يقمع الحرية ويهدر حقوق الإنسان فتلك هي مقومات البناء والتقدم ومن ثم الاستقلال الاقتصادي والقوة الاقتصادية والعسكرية!!!

لا أدري كيف يغيب عن العقل العادي... أن دكتاتورية صدام وأمثاله لا تستمد وجودها إلا من العالم الغربي الذي تدعي عداءها له... فهذا العالم الغربي هو الذي يمدها بمنشآت البترول وهو الذي ينتج لها هذا البترول... وهو الذي يشتري منها هذا البترول... ومعلوم أن البترول هو الثروة الوحيدة القابلة للتصدير والتي يملكها صدام... ومعروف أيضا أن نظام صدام لا يستطيع تصنيع مسمار واحد في معدات التنقيب عن البترول أو استخراجه أو حتى نقله وتوزيعه فكل شيء للشركات الأمريكية والأوروبية فهي العميل الأول لصدام... وهي المستهلك الأول لبتروله وهي المصدر الأول لدولاراته...

إن الصورة الصحيحة في أزمة صدام هو أنه أراد بفلوس البترول – لا بتحرير شعبه وتعليمه وتثقيفه – الخروج عن الخط الذي رسمته الولايات المتحدة وأن يتوسع شرقا وغربا... وأن يلعب دور البطل

القومي الموحد للأمة العربية... ولكنه لم يفهم... كما لم يفهم من سبقه... أن القوة والقدرة لا تشترى أبدا بفلوس البترول... إنما تصنع بأيدي الشعوب الحرة المتعلمة العارفة... فهذه الشعوب هي وحدها القادرة على استخدام العلم والمعرفة في بناء قوتها وتحقيق استقلالها ومواجهة أعدائها والدفاع عن أوطانها!!

ونقول لصدام والصداميين... إننا نرفض تسلط الولايات المتحدة... ونرفض هيمنتها... ونستنكر بشدة تحيزها لإسرائيل وظلمها للعرب... ولكن السؤال الذي نرجو أن ينجح العقل العربي في الإجابة عليه: هل ما يفعله صدام هو الطريق الأمثل لمواجهة جبروت الولايات المتحدة وإسرائيل أم أن ما يفعله هو الطريق الأسهل لتمكين الولايات المتحدة وإسرائيل من احتلالنا وإذلالنا وابتزازنا؟!

صدام صناعة أمريكية

هذه المظاهرات والمسيرات التي اجتاحت العالم العربي... احتجاجا على التهديد الأمريكي بضرب العراق... لم تكن أبدا تأييدًا لصدام ولا دعما لسياساته وسلوكياته!!!

والذين ظنوا أن المظاهرات اختبار لشعبية صدام ونجوميته السياسية في العالم العربي واهمون... إنما الواقع أن أغلبية الجماهير العربية بمثقفيها وجهلائها يسترجعون ذاكرة الغضب ضد الولايات المتحدة وحلفائها... وهي ذاكرة عامرة بأسوأ المواقف من أخطر قضية تمس الشارع العربي وهي قضية فلسطين... فلم ينس الشعب العربي التأييد المطلق الذي حظي به الصهاينة من الولايات المتحدة منذ أن كانوا عصابة تحاول اغتصاب أرض فلسطين إلى أن أصبحوا دولة تحاول اغتصاب العالم العربي كله!!

ولن ينسى الشعب العربي الكم الهائل من حق الفيتو الذي طرحته الولايات المتحدة في مجلس الأمن منذ قيام دولة إسرائيل لحمايتها من قرارات المجلس ضد كل الانتهاكات التي مارستها والجرائم التي ارتكبتها في حق العرب باسم حماية أمنها وصيانة شعبها!!

ولن ينسى الشعب العربي أسلحة الدمار الشامل التي صنعتها إسرائيل بمساندة الدول الأوروبية والولايات المتحدة وعلى رأسها القنبلة الذرية التي أخلّت تماما بموازين القوى في المنطقة العربية... وأفسدت تماما الجهود الدولية لحظر إنتاج واستخدام الأسلحة النووية!!

ولن ينسى الشعب العربي الدكتاتوريات التي صنعتها الولايات المتحدة في العالم العربي ثم رعتها ودعمتها على حساب الشعوب الضائعة المقهورة لتبقى مصالحها في المنطقة فوق كل المصالح!!!

لن ينسى الشعب العربي كل ذلك ولا أعتقد أن الولايات المتحدة بأوضاعها الراهنة على استعداد لأن تنسى هذا الخط السياسي المؤيد لإسرائيل والمساند في نفس الوقت للعديد من الدكتاتوريات العربية التي صنعتها وفرضتها على الشعوب العربية!!

ونحن لا نعتب على الولايات المتحدة لأنها لا ترى إلا مصالحها ومصالح حلفائها الأقربين... ولكننا نعجب من تصرفاتها تجاه دكتاتوريات العالم الثالث الذي تجتهد كثيرا للهيمنة عليه... فالسياسة الأمريكية تعامل دكتاتوريات أمريكا اللاتينية وآسيا وأفريقيا السوداء بخشونة وقسوة ودكتاتوريات العالم العربي بليونة ورفق ونجدها لا تفرط في ضبط أي مخالفة ترتكبها الدكتاتوريات غير العربية ضد حقوق الإنسان وضد حق الشعوب في اختيار حكامها... ونسمع ونقرأ أن الولايات المتحدة قطعت المعونة أو هددت بقطعها لأن دكتاتورا في

آسيا يرتكب جرائم تعذيب ضد مواطنيه... أو أن دكتاتورا في أفريقيا يواصل تزوير الانتخابات!!

أما دكتاتوريات العالم العربي فتحظى بالرعاية والحماية من الولايات المتحدة بل وتتمتع بالتدليل والمجاملة طالما أنها على وفاق واتفاق مع السياسة الأمريكية أما إذا خرجت عن الخط الأمريكي... فلا بد من تأديبها وردعها... ولو أدى ذلك إلى شن الهجمات العسكرية أو تجريد الجيوش والأساطيل لتخويفها... أو الإجهاز عليها!!!

هكذا تتعامل الولايات المتحدة مع دكتاتوريات المنطقة العربية... تأتي بها رغم أنف الشعوب... وتؤدبها إن خرجت على طاعتها... ثم تسقطها إن استعصى عليها التأديب والتهذيب!!!

مَن الذي جاء بصدام إلى قمة الحكم في العراق؟! ثم من الذي سكت عليه عندما شن حربا مدمرة ضد إيران لمدة تسع سنوات متواصلة؟!

ومن أين كان يأتي صدام بالأسلحة والذخيرة طيلة هذه السنوات التسع؟!

هل سمعنا طيلة هذه المدة عن تحرك جاد أو موقف حاسم ضد صدام طيلة سنوات حربه مع إيران؟!

أبدا... لم تتحرك الولايات المتحدة ولم تهتم إلا عندما بدأ صدام يهدد مصالحها المباشرة في المنطقة... وعندما أخذ يتسلح ويتوسع

ويسعى إلى السيطرة على دول الجوار ويستعرض عنترياته في مواجهة إسرائيل!!!

قد ترى الولايات المتحدة أن عدواً عاقلاً خير من صديق جاهل وأن السلاح النووي بين أيدي إسرائيل أفضل من السلاح الكيميائي في يد العرب... فحاكم كصدام لا يتورع عن استخدام أسلحة الدمار الشامل ضد أي دولة عربية تعارض سياسته ولا ضمان ولا أمان من ذلك طالما أنه صاحب القرار في كل شيء... أما إسرائيل فتحكمها مؤسسات وهناك برلمان ورأي عام يحاسب ويعاقب ويسقط الحكومة عند الضرورة ولكن هذا المنطق الأمريكي لا يستقيم أبدا أمام دولة كالصين أو باكستان تملك الأسلحة النووية وتحكمها نظم دكتاتورية ولو لفترة زمنية!!

ثم ما الذي يضمن عدم تهور إسرائيل أو على الأقل عدم خطئها في التقدير وعندها حكام متطرفون من أمثال بنيامين ناتنياهو وشارون؟!

إن هذا المنطق الأمريكي لا يجد اقتناعا ولا تبريرا عند الشعوب العربية... ولا يمكن أن نقنع الرجل العادي أو حتى غير العادي بأن سياسة الكيل بمكيالين التي تنتهجها الولايات المتحدة تحمل الخير والبركة للعالم العربي... ولكن واضعي السياسة الأمريكية في الولايات المتحدة ما زالوا يعتقدون أن القروض والمعونات الأمريكية هي أفضل سلاح لشراء السكوت العربي والشارع العربي... حتى وإن كانت هذه القروض تبتلعها بشراهة الدكتاتوريات الحاكمة قبل أن تحقق شيئا ملموسا للاقتصاد العربي أو الإنسان العربي!!!

متى تفهم الولايات المتحدة... أن سياسة النظر القصير لا يمكن أن تخدم مصالحها وأن هذا العالم العربي... بأفعالها... وتحدياتها سوف يستيقظ يوما... ولكن لن تكون يقظته في صالحها... ولا في صالح حلفائها... ولا في صالح السلام العالمي الذي يحرص الجميع على تحقيقه واستمراره!!!

حكم الطغاة وحكم الشعوب

نحن ضد العدوان الأمريكي على العراق... ونحن أيضا ضد دكتاتورية صدام التي ألحقت البؤس والخراب بشعب العراق!!

ومادمنا نستنكر العدوان الأمريكي على العراق فإن علينا أن نستنكر في الوقت نفسه عدوان النظم العربية على الديمقراطية وانتهاكها لحق الشعوب العربية في تقرير مصيرها!! فالشعوب العربية مغلوبة على أمرها... والجامعة العربية غارقة في نومها وكل شيء جاهز لاستغلالنا وإذلالنا!!!

وعلينا أن نعترف بأن الذي فتح أبواب جهنم على العالم العربي وأخضعه لكل أنواع المذلة والهوان هو غيبة الديمقراطية... وتسيد الاستبداد الذي صنعته الدكتاتوريات المنتشرة في هذا العالم... والتي لم تجد من يقتلعها من جذورها أو يوقفها عند حدا!!

لقد ظهرت دكتاتورية صدام بسبب صمت وسكون الشعوب العربية... ونمت بمهادنة ونفاق الحكومات العربية وطغت وتجبرت بمساندة ومؤازرة الدول الغربية وكان أول قطافها ضرب إيران... ثم

التهام الكويت... ثم تدمير آبار البترول... ثم إرهاب المنطقة العربية بجنون الزعامة وولعها بامتلاك أسلحة الدمار الشامل!!

وكما دعم الغرب صدام وساعده وسانده من أجل مصالحه فقد عمد إلى استغلاله عندما خرج على قواعد اللعبة وأصبح مصدر تهديد لجيرانه وأقرانه... ودخلت الولايات المتحدة إلى المنطقة العربية وتربعت فيها باسم تحرير الكويت وحماية الدول الخليجية من عدوان صدام وجبروته!!! ومنذ تحرير الكويت... وصدام يراوغ ويناور... ويصدر تهديداته إلى البلاد العربية المحيطة... والولايات المتحدة تنشر حمايتها العسكرية وتثبت أقدامها في شبه الجزيرة العربية على أنغام تلك التهديدات الصدامية!!!

إن تفكك الأسرة العربية... وضعف الجامعة العربية هما السببان الرئيسان وراء ضياع العالم العربي وخضوعه المطلق للهيمنة الأجنبية... فلم تنجح القمم العربية رغم كثرتها في الالتقاء حول حد أدنى من المبادئ التي تخدم المصالح العربية... ولم تستطع الجامعة العربية رغم طول عمرها أن تصنع صفا عربيا واحدا أمام أي قضية مصيرية!! حتى عندما غزت العراق الكويت... وضمتها إلى أراضيها انقسم الحكام العرب حيال هذا الاعتداء الصريح الواضح على مواثيق الجامعة العربية والمواثيق الدولية بين مؤيد لصدام ومعارض له... ووجدنا أنفسنا أمام انقسام في الرأي في قضية بدهية لا تحتمل أي انقسام... ولم يكن بد من تدخل أجنبي ينتهز هذه الفرصة الفريدة لينوب عنا في تحرير الكويت

من قبضة صدام بعد أن عجزنا عن تحريرها بأيد عربية ودون تدخل من قوى خارجية!!!

والذين يبكون اليوم على شعب العراق ويشيدون بقوة صدام وصموده... عليهم أن يعلموا أن نكبة العراق لم تأت من فراغ... فقد حشر صدام نفسه في اللعبة الدولية دون أن يكون مؤهلا لها... وانفرد باتخاذ القرارات المصيرية في غيبة الأسرة العربية... وتوهم قدرته على الانتشار والسيطرة على أخطر مناطق البترول العربي وأشدها حساسية... وتصور شراء القوة العسكرية بأموال البترول... كذا أسلحة الدمار الشامل بأموال البترول... والذمم والضمائر بأموال البترول!!!

ولم يفهم دكتاتور العراق أبدا أن الذين صنعوه وساندوه يستطيعون هدمه وإبادته إذا ما حاد عن الخط الذى رسموه له... أو خرج عن أهدافهم فقد دفعوه إلى إيران... وحاربها بإمدادات غربية... وأسلحة غربية وسانده بعض الحكام العرب عن خوف أو غباء حتى استنـــزاف موارد بلاده... وموارد إيران أيضا في حرب استمرت تسع سنوات وهذا هو المطلوب والمستهدف أن تستنـــزف الدولتان في حرب تقليدية... وأن يستفيد الغرب ببيع إمداداته ومعداته... وأسلحته للمتحاربين... وأن يظل الخليج في حالة توتر دائم تدفعه للبحث عن الأمان والحماية!!!

إن بلاءنا لن ينقطع... ومصائبنا لن تختفي إلا باختفاء الدكتاتورية من أوطاننا... فهي التي أتاحت كل الفرص للتنابذ والتناحر... وهي

التي فتحت كل الأبواب على القوى الغربية والنفوذ الغربي ليهيمن ويسيطر على مقدرات عالمنا العربي... وهي التي مكنت لإسرائيل من السيادة والريادة على الشرق الأوسط... وهي التي دفعت دولة عظمى كالولايات المتحدة إلى الانصياع لإسرائيل... والتحالف معها!! فما الذي تخشاه الولايات المتحدة من العالم العربي... طالما أن معظم النظم العربية من صنعها... ومعظم الحكام العرب رهن إشارتها؟!

وإذا كانت الولايات المتحدة وحليفتها إسرائيل لا تخشى الدول العربية... ولا الحكام العرب... لأنهم لا يجتمعون على قرار واحد... ولا يرتبطون بسياسة واحدة... فلها أن تفعل بالعالم العربي ما تشاء!! ولو كانت هناك سياسة عربية واضحة ومحددة أو جامعة عربية تفرض سلطانها على الحكام العرب على الأقل في القضايا المصيرية... لما أمكن لصدام أو غير صدام أن يطغى ويستبد... وأن يعربد طولا وعرضا في الساحة العربية...

لقد كشف التهديد الأمريكي للعراق... بعد المسافة بين الحكام والشعوب... وأبرز أهمية الديمقراطية في قيادة العالم العربي نحو المستقبل القادم... ولو كانت الشعوب العربية هي الحاكمة في أوطاننا لكان للمنطقة العربية وضع آخر... ولكان للولايات المتحدة وحلفائها موقف آخر!!! فالشعوب عندما تحكم تملك القدرة الحقيقية على المواجهة... وعلى الضغط... وعلى التأثير في مجريات المصالح الكبرى للدول العظمى... وتلك هي قيمة الديمقراطية الحقيقية... قيمة أن

تحكم الشعوب نفسها بنفسها... وأن تختار حكامها بمحض إرادتها وأن توجههم وتراقبهم وتحاسبهم بل وتسقطهم عندما تقتضى الضرورة!!!

وليعلم المنادون بحياة صدام وسقوط كلينتون... أن صدام لم يحاكم أبدا على ما فعله بشعب العراق... ولا بشعب الكويت بينما يحاكم كلينتون على مجرد هفوة يرتكبها بعض حكام العرب كل ساعة وهذا هو الفارق بين الدكتاتورية والديمقراطية... أو بين حكم الطغاة... وحكم الشعوب!!!

لعبة التسلح ؟؟

عزيزي الرفيق صدام ... انتهى زمن الحروب التقليدية. . ولم تعد الحروب بالمدافع والدبابات والطائرات العادية... بل أصبحت الحروب بالصواريخ الذكية والقنابل الموجهة بأشعة الليزر من مئات الأميال!!! وفي هذه الحروب الحديثة لا توجد مواجهة بشرية بين مقاتل ومقاتل... بل تجري المواجهة من البعد بين صواريخ وقذائف تطلق من البوارج والغواصات والطائرات التي ترابط على مسافات بعيدة من حقل المعركة!!

وقد شهدنا هذا الانقلاب في فنون الحرب منذ حرب الخليج الثانية وبصورة أوضح في الهجمات الجوية التي شنتها الولايات المتحدة وبريطانيا على العراق – وما زالت –!!

لم تعد هناك أهمية للمقاتل الفرد... ولا للدبابة التقليدية التي كان آخرها حرب رمضان!! إنما أصبحت الأهمية للأجهزة والمعدات الإلكترونية القادرة على إصابة أهداف العدو من البعد فإذا لم يملك العدو قدرة الرد بالمثل أي إذا كان مجردا من وسائل الحرب الإلكترونية الحديثة فمن المستحيل تصور قدرته على كسب المعركة!!

وقد طورت إسرائيل تسليحها منذ بداية عصر الحرب الإلكترونية... والفضل بطبيعة الحال يرجع للعالم الغربي وخاصة الولايات المتحدة ويرجع أيضا إلى دأب الإسرائيليين على الاستمرار في التفوق العسكري على كل العرب... ونجاحهم في إنتاج أسلحة الدمار الشامل وخاصة القنبلة النووية منذ أكثر من عقدين من الزمان!!

وكان من الممكن لمصر أن تملك على الأقل قدرة الردع النووي منذ الستينات... إلا أن عبد الناصر رفض بشدة الدخول في هذا السباق... بل وسارع بالسعي إلى توقيع اتفاقيات نزع الأسلحة النووية قبل غيره من الحكام العرب...

وكانت مصر مؤهلة بحكم ظروفها لكسب السباق النووي ضد إسرائيل... فقد كانت في الخمسينات أكثر تقدما من الهند أو باكستان... بل كانت تملك دراسات وأبحاثاً أشرف عليها نخبة من علماء مصر في هذا الميدان...

ولو نجحت مصر في امتلاك القنبلة النووية في الوقت المناسب لما جرؤت إسرائيل على ذبح الجيش المصري في عرض سيناء عام ١٩٦٧ ولأصبح التوازن النووي بين مصر وإسرائيل عاصما لمصر من أي عدوان ومدعما لها في أي مفاوضات من أجل سلام عادل...

ولا أفهم بعد كل هذا بأي منطق نسعى إلى التسلح التقليدي... أو التسلح الذي لا يكسبنا أي ميزة في مواجهة عدونا التقليدي؟! أو أي ميزة في مواجهة عدوان أجنبي محتمل؟!

إن صفقات السلاح الضخمة التي تجريها روسيا والولايات المتحدة مع بعض الدول العربية يستحيل هضمها لا في إطار دفاعي ولا في إطار هجومي ضد إسرائيل... وإن كان يمكن تبريرها في إطار المواجهات المحتملة بين الدول العربية بعضها البعض... أو بينها وبين إيران مثلا!!

ومن المعلوم والمؤكد أن الولايات المتحدة وروسيا تضمنان أمن إسرائيل... وتضمنان أيضا تفوقها النوعي على الدول العربية مجتمعة كما أن الولايات المتحدة بمقتضى معاهدة كامب ديفيد تضمن أمن مصر... وتضمن عدم اعتداء إسرائيل عليها!! فما مغزى هذا الزخم الضخم من صفقات السلاح الأمريكي وما فائدته القومية؟!

هل هو من أجل ردع بعض دول الجوار العربية؟! أم هو من أجل إرضاء النـــزعة الوطنية؟! أم هو من أجل دعم النظم الحاكمة؟! أم من أجل كل هذه الأسباب مجتمعة؟!

إن الإجابة تتركب في الواقع من كل هذه الأسباب... ويصعب ترجيح سبب على آخر يدفع بالدول العربية إلى قبول هذه الصفقات العسكرية وبهذا الكم الهائل حتى ولو كان ممولا من المعونات الأمريكية... فالكيف العسكري أهم من الكم والتنمية أولى من التسلح التقليدي... والمغزى من السياسة الأمريكية التي تدعي السعي إلى دعم الاستقرار في المنطقة العربية واضح وصريح وهو البحث عن المصالح الأمريكية وأهمها البترول العربي الذي أصبح مهددا بالعراق وإيران... وصار من الواجب تأمينه بالتدخل العسكري المباشر والمدعوم من بعض دول المنطقة!!!

ولا أفهم لماذا توافق بعض الدول العربية على التسلح خصما من المعونة الأمريكية؟!

إن هذا النوع من التسلح يفقد المعونة الأمريكية معناها ويحولها إلى معونة للولايات المتحدة وليست معونة للدول العربية... أي معونة من أجل دعم المصالح الأمريكية في المنطقة لا من أجل دعم المصالح العربية!!!

ولا أفهم أيضا لماذا تدفع دول الخليج من جيبها ثمن الحماية الأمريكية من عدوان صدام؟!

إن على من يريد حماية مصالحه أن يدفع من جيبه والولايات المتحدة تسعى إلى حماية مصالحها البترولية في منطقة الخليج لا حماية الشعوب الخليجية فلماذا تدفع شعوب الخليج فاتورة الحماية العسكرية الأمريكية؟!!

إن هذا السلوك الأمريكي الذي يجنح فى بيع أسلحة تقليدية لدول الخليج وغيرها يذكرنا بسلوك الاتحاد السوفيتي الذي كان يبيع لمصر والعراق وبعض الدول العربية أطنانا من الأسلحة التقليدية المتخلفة مقابل أطنان من الغذاء والكساء ومئات الملايين من الدولارات... وكانت مصلحته الأولى هي السيادة والسيطرة الاستعمارية على المنطقة العربية لا تحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني كما كان يدعي... وقد شهدنا قيمة هذه الأسلحة وجدواها في حروبنا مع إسرائيل فلم يكن من بينها سلاح هجومي واحد يتيح تحرير الأرض أما الأسلحة الدفاعية فحدث ولا حرج!!

إن ألعوبة بيع الأسلحة التقليدية أو غير المؤثرة للدول العربية لن تنتهي إلا بوقفة عربية شجاعة تضع النقاط فوق الحروف فنحن نرفض التسلح المتخلف في وقت نسعى فيه إلى قهر التخلف... وأجدى بنا أن ننفق كل قرش على تنمية بلادنا والنهوض بها بدلا من تبديد الثروة في شراء أسلحة لا تجدي في الردع ولا تنفع في الحرب... وليس معنى كل ذلك أننا ضد التسلح... ولكننا ضد أساليب الاستحمار... أو ضد من يبيعون البردعة بغير الحمار!!!

هل وصلت الرسالة أيها الرفيق صدام قبل الاشتباك المسلح مع العم سام؟!

ديمقراطية العم سام

سوف تضرب العراق... وسوف يعاد توزيع الأدوار في الشرق الأوسط... وسوف تظهر نظم جديدة في المنطقة العربية ترفع أعلام العم سام!!! ولا وقت للكلام فالحلال بين والحرام بين... ولم يعد أمامنا سوى الفعل الجماعي المنظم لمواجهة هذا الخطر القادم... وعلى القوى الوطنية أن تجمع شملها وتوحد صفوفها من أجل عمل جاد في اتجاه الإنقاذ!!! وليس بمجد التعلل بلقمة العيش... ولا التمسح بالخوف من البطش... فهذه الأعذار التي تنطق باليأس لن تفيد في إنقاذنا... ولن تجدي في إطعامنا وكسائنا... ولابد أن تختفي تماماً من حياتنا تلك النغمة المتخاذلة لتحل محلها إرادة الفعل المنظم من أجل التغيير!!!

لقد بدأ التغيير فعلاً فى مصر وبعض الأقطار العربية وبخطوة واحدة فقط نحو الديمقراطية ثم توقف كل شئ... ولم نعد نرى بعد إباحة التعددية الحزبية من الديمقراطية سوى مظاهرها الخارجية أما جوهرها فقد ظل بعيداً عن التطبيق فلا حرية حزبية ولا نزاهة انتخابية... ولا شفافية إعلامية ولا محاسبة برلمانية لا شئ من تلك الآليات التي تستلزمها الديمقراطية... وتفرضها مبادئها الأساسية... إنما نسيج آخر يحكمه دستور كسيح... وقوانين ظالمة... ومحاكم استثنائية... وطوارئ

معلنة تقتل الحريات العامة... وتهدر محاولات التنمية... وتحاصر الناس بالأزمات!!!

لقد نامت جماهير مصر عن ثعالبها... وغابت النخبة -إلا فيما ندر- عن دورها التاريخي في القيادة والريادة وحولنا عالم يتحرك بسرعة نحو الحرية والديمقراطية... وشعوب تنطلق وتتقدم في آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية... لقد بدأ مسلسل الديمقراطية في العالم الثالث، ولكنه لم يبدأ من مصر... بل بدأ من دول أخرى أدركت جدوى الديمقراطية وضرورتها في حكم الشعوب... وأيقنت خطورة الحكم المطلق وأضراره البالغة على الحاضر والمستقبل!!!

أما في عالمنا العربي فقد تساوت الرؤوس في البحث عن الديمقراطية... بينما مصر أعرق دولة في العالم الثالث أخذاً بها وتطبيقاً لها... بل إن مصر هي الدولة الوحيدة في هذا العالم التي وضعت دستوراً وأسست برلمانات منذ عام ١٨٦٦، وتمكن أول برلماناتها رغم تواضع تشكيله من إسقاط حكومة شريف باشا!!!

ومصر هي الدولة الوحيدة في هذا العالم العربي التي امتلكت منذ نهاية القرن الثامن عشر أكبر منابر الرأي والكلمة... ابتداء بالأهرام ومروراً بدار الهلال ودار المعارف والمقتطف والمؤيد وروزاليوسف وأخبار اليوم وكانت كلها مدارس تنوير وتطوير عمت أضواؤها كل الأرجاء... لقد انطلقت من مصر أكبر شحنة تنوير في العالمين العربي والإسلامي... وهي الشحنة التي أضاءت وظلت تضئ أرجاء هذين العالمين حتى خبا ضياؤها وانطفأت جذوتها على أيدي حفنة من

الانقلابيين المستبدين. لقد فقدنا الوعي برسالتنا وهويتنا بعدما فقدنا الوعي بتاريخنا الحقيقي والأشواط التي قطعناها على دروب التنمية والتقدم ولم نسمع شيئاً سوى نغمة واحدة تحدثنا عن أمجاد زائفة... وبطولات كاذبة لم نر منها سوى الهزائم والنكبات... وهذا الوعي المفقود لن يعود إلا بجهود الرجال... بجهود النخبة التي تبحث عنها... فلا نجد أكثرها سوى في البيوت والندوات تمصمص الشفاه... وتجتر الأحزان في هدوء وتردد في برود وماذا في استطاعتنا أن نفعل؟! ويحضرني السؤال: وماذا فعلتم حتى الآن؟! لا شئ سوى مواصلة الاستمتاع بالحياة بعيداً عن وجع الدماغ... تحت لافتة تبريرية قميئة اسمها "مافيش فايدة" وكأن هؤلاء القوم قد فعلوا كل شئ... وضحوا بكل شئ في سبيل الإصلاح والتغيير!!! مع أن أغلبهم كان يقف في الخندق المضاد للإصلاح... للاستفادة بمناخ عدم الإصلاح والتغيير!!! والانتفاع برضى أولياء النعم وسادة الحل والعقد!!!

هل ننتظر التغيير من الخارج... أم نبدأ التغيير بأنفسنا وبمبادرة حقيقية منا؟ هذا هو السؤال الذي طرحناه مراراً على الساحة السياسية... ولن نكف عن طرحه... حتى يأذن الله وتتحرك قافلة الإصلاح التي مازالت متوقفة عند ديمقراطية سيد قراره منذ زمن طويل!!!

وما زلت رغم تصاعد الأزمة... وتوالى العد التنازلي لتنفيذ المخططات الأمريكية في ضرب العراق... مسلحاً بالأمل في عمل شئ... أي شئ منظم يخدم الرسالة التي تنشدها مصر فنحن في محنة

حقيقية يستحيل معها أن نبرئ ذمتنا أمام الأجيال... طالما أننا لم نبذ جهداً ملموساً في سبيل الإصلاح والتطوير... ولا أخال أن الحوار الوطني يمكن أن ينقطع بين القوى السياسية ومؤسسات الدولة الرسمية... رغم كل التجاهل الذي تبديه هذه المؤسسات تجاه الإصلاح السياسي... فهذه المؤسسات معنية أكثر من غيرها بالخطر القادم... بل ومستهدفة أكثر من غيرها بهذا الخطر... وكان عليها أن تقود الإصلاح السياسي منذ سنوات... ولكنها ترددت ثم أحجمت تماماً عن المضي خطوة واحدة في هذا الإصلاح!!!

والآن... وبعد وضوح الصورة هل ننتظر حتى يفرض علينا من الخارج ديمقراطية العم سام... أم نشرع فوراً بإرادتنا في الإعداد لديمقراطيتنا التي تأخر مولدها سنوات طويلة رغم كل المحاذير!!!

قليل من الحكمة

قال أرسطو: الشجاعة هي الحكمة عند مواجهة الخطر، والآن كيف نواجه الخطر ونحن نقترب من خط النهاية؟!

كانت البداية حرب ضد إيران!!! ثم غزو ضد الكويت!!! ثم أزمة مع الولايات المتحدة!!!

أما النهاية فلا ناقة للأمة العربية فيها ولا جمل... فالولايات المتحدة مُصِرَّة على ذبح الشعب العراقي وإذلال الشعب العربي من أجل إزاحة صدام وإعادة ترتيب الأوضاع في المنطقة العربية!!! وعند خط النهاية يقف العرب بلا عضلات مفتولة... ولا سيوف مسلولة... ولا حتى كلمة مقبولة... ليصرخوا في نفس واحد لا لأمريكا... ولا للحرب!!! نعم لا لأمريكا... ولا للحرب... ولكن ما البديل لتدخل أمريكا... وما البديل لمنع الحرب!!!

كنا نفهم أن يلتقي الحكام العرب أو بعضهم على كلمة سواء لمواجهة الرئيس صدام أولاً ثم مواجهة أمريكا ثانياً منذ بداية الأزمة!!!

كنا نفهم أن يكون هناك إجماع أو شبه إجماع من القمة يُلزم الرئيس صدام بالامتثال لقرارات الأمم المتحدة كنا نفهم أن يكون للجامعة

العربية دور فعال في الصراع القائم بين الولايات المتحدة ونظام صدام!!! كنا نفهم أن يكون لهذه الجامعة دور أساسي في مراجعة مزاعم الولايات المتحدة والمجتمع الدولي حول امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل... وأن تتولى هي بواسطة أجهزتها التحقق من مدى صحة امتلاك العراق لهذه الأسلحة... ولا بأس في أن تتعاون في ذلك مع الخبراء والمفتشين الدوليين ومجلس الأمن... أما أن تنام الجامعة العربية فلا تبدي حركة ولا سكنة في الاتجاه الصحيح وتترك ساحة الخلاف مكتفية بالشجب والاستنكار... فهذا ما يأباه العقل ويرفضه المنطق.

فما وجدت الجامعة العربية بحكم ميثاقها إلا لمثل هذه الأزمات الكبرى... وإذا كان هذا هو جهدها وتلك هي قدرتها... فقد أفصحت عن حقيقتها وكشفت عن وجهها العاجز في تناول هذه الأزمة الخطيرة كغيرها من الأزمات التي عصفت بعالمنا العربي وأوردته موارد التفكك والضياع ... لذلك كانت قناعتنا الكاملة بضرورة إعادة النظر في هذا الصرح الإقليمي المتهدم لإعادة بنائه على أسس قوية تكفل أداء رسالته في خدمة العالم العربي ولعل أخطر عيب في الجامعة هو ميثاقها الذي ينص على ضرورة إجماع الدول العربية على كل قرار يصدر عنها... فهذا الإجماع يؤدى إلى عجز الجامعة عن اتخاذ أي قرار هام ولابد من العودة إلى قاعدة الأغلبية بدلاً من قاعدة الإجماع التي شلت رسالة الجامعة وأعدمت قدرتها على اتخاذ القرارات المصيرية!!!

ولا أخال أن الوقت يتسع كثيراً أمام البدائل المتاحة لتجنب الحرب!!! فقدرتنا على مواجهة الولايات المتحدة عسكرياً مستحيلة... كما أن قدرتنا على الضغط عليها اقتصاديا صعبة وتستلزم شروطاً قاسية لا يمكن توافرها حالياً في ظل النظم العربية القائمة... ومن هنا يبدو أمامنا حل واحد عملي ومنطقي ولا يخفي على أحد من أهل القمة قد يؤدى تنفيذه بدقة إلى تجنب الكثير من الكوارث البشرية والمادية الناجمة عن الحرب... وهو أن يجرى تنسيق عربي لانسحاب الرئيس صدام من الساحة... بإعلانه اعتزال الرئاسة بعد تسليم السلطة لحكومة مؤقتة ومغادرته العراق إلى بلد أجنبي يقبل استضافته وبذلك يجنب أسرته وشعبه الذبح على ايدى الولايات المتحدة... ويرفع أيضاً عن الشعوب العربية الكثير من المعاناة التي سوف تسببها الحرب!!! ولكن الأهم هو تفويت الفرصة على الولايات المتحدة لضرب العراق واحتلال أراضيه وهي الفرصة التي تعد لها الإدارة الأمريكية منذ زمن طويل وتتحين الفرصة المناسبة لاقتناصها سعياً للسيطرة على منابع البترول بالعراق ومنطقة الشرق الأوسط... وفرض مخططها الرامي إلى إعادة ترتيب الأوضاع في عالمنا العربي بما يتفق ومصالحها العليا!!!

ونوايا الولايات المتحدة صريحة ومعلنة بكل وضوح على لسان رئيسها وكبار مسئوليها... ولا تحتمل شكاً ولا تأويلاً فهي سعيدة جداً باستمرار تشبث صدام حسين بالسلطة... ومواصلته المراوغة والادعاء بعدم امتلاكه لأسلحة الدمار الشامل... والمؤسف أن الولايات المتحدة واثقة من وجود أسلحة دمار شامل بأراضي العراق... لأنها زودت العراق بهذه الأسلحة إبان حربه مع إيران وقام الجيش العراقي

باستخدام هذه الأسلحة في ضرب إيران قبل نهاية الحرب... ولكن الإدارة الأمريكية تؤكد أن النظام العراقي يخفي ما تبقى من هذه الأسلحة... ويدعي استهلاكها في معاركه الضارية ضد إيران!!! وتصر في كل مواقفها على أن العراق ما زال يمتلك أسلحة دمار شامل يمكن أن تهدد أمريكا في المنطقة العربية!!!

المهم أن الوقت يجرى بين شد وجذب من الطرفين... والحكومات العربية تكتفي من المعركة بالبيانات والتصريحات وكلها تحمل المضمون العاجز عن المواجهة بينما نغمة الحرب تشتد قوة وملامح المخطط الأمريكي تزداد وضوحاً والأرجح أن الإدارة الأمريكية سوف تتعامل مع الأزمة تعاملها مع اليابان في نهاية الحرب العالمية الثانية بمعنى أنها تريد انتصاراً عسكرياً ساحقاً على العراق وتريد أيضاً إعادة صياغة الجغرافيا السياسية للعالم العربي كله... وهذا هو الهدف الكبير والأخير من ضرب العراق واحتلاله وفرض نظام حكم جديد لإدارته... وربما كان ذلك مصحوباً في نفس الوقت بتعديل جغرافية " الأردن ــ فلسطين " وإجبار النظام الأردني على قبول الفلسطينيين على أرضه بعد ضم الضفة الغربية إلى الأردن وطرد الفلسطينيين بالقوة من أراضي السلطة الفلسطينية!!!

قد يبدو هذا المخطط بعيدًا عن التصديق ولكن من يمنع الولايات المتحدة من أن تفعل ذلك؟! ومن يمنع إسرائيل من أن تستغل هذا الموقف لتصفية القضية الفلسطينية؟! إنها مصيبة نرجوا الله أن يعين الشعوب العربية على احتمال نتائجها!!! وأقول الشعوب لا

الحكومات لأن الشعوب لم تقم بدورها حتى الآن... فلا الأحزاب... ولا النقابات ولا منظمات المجتمع المدني تحركت وانتظمت وتوحدت كلمتها لتفرض على الحكومات العربية رأياً قوياً يلزمها بالتصدي الجاد للأزمة تجنباً للحرب أو على الأقل لمواجهة المخططات الأمريكية بعد الحرب!!!

إنه الإسلام السياسي

أجزم أن كل ما نشاهده ونقرأه ونسمعه حول ضرب العراق ليس إلا نصف الحقيقة!!!

صحيح أن العراق سوف يضرب خلال ساعات أو أيام ولكن النصف الآخر من الحقيقة والذي لا يكاد يصدقه أحد هو الدوافع والأسباب وراء ضرب العراق فالدافع ليس امتلاك العراق أسلحة دمار شامل أو غير شامل... ولكن الهدف الرئيسي هو الإسلام السياسي الذي تخشى الولايات المتحدة خطره وأما الرئيس صدام فهو المبرر الظاهر للقفز إلى قلب العراق واحتلاله والبدء في مقاتلة هذا التيار العنيف العنيد في كل العالم العربي!!!

وليس هذا فحسب فالفكر العربي مشلول تماماً والرؤية العربية عاجزة تماماً عن استيعاب الحقيقة كاملة بفضل جهود الإعلام العربي الموجه الذي مازال يخلط الأوراق وينشر الضباب في وعي الإنسان العربي... فلا أحد يفصح بصراحة عما تضمره الولايات المتحدة لعالمنا العربي إذا ما نجحت في إسقاط نظام صدام... فالهدف رغم إعلانه مراراً... وعلى لسان الرئيس بوش هو تغيير الأنظمة العربية...

وتحويلها من الدكتاتورية إلى الديمقراطية... ومن سحق الإنسان إلى الاعتراف بحقوق الإنسان!!!

والنموذج الذي وعد الرئيس بوش بتقديمه للعالم العربي بعد إسقاط النظام العراقي هو نموذج الحكم الديمقراطي الصحيح لجمهورية العراق الشقيق!!! وإذا تحقق وعد الرئيس بوش وقدم للشعوب العربية هذه الهدية الثمينة فإنه يتوقع انتشار عدوى الديمقراطية في كل البلاد العربية... وانهيار العديد من النظم الحاكمة أو تحولها إلى الديمقراطية بالطرق السلمية!!!

هذا هو نصف الحقيقة الآخر أما تفاصيله فتعود إلى الثورة الإيرانية الإسلامية التي خلفت نظام الشاه الموالي للولايات المتحدة ونجحت في إرساء أول نظام حكم إسلامي... ورغم محاولات الولايات المتحدة ضرب هذا النظام إلا أن الظروف الدولية لم تكن مواتية لإسقاطه بضربة مباشرة بسبب الحرب الباردة والوجود السوفيتي... فكانت فرصة الحرب العراقية الإيرانية التي ساندت فيها الولايات المتحدة والعالم الغربي العراق ضد إيران... لتسع سنوات متواصلة أنهكت خلالها قوى الطرفين... ولكن دون سقوط النظامين العراقي والإيراني!!!

وجاءت مناسبة انهيار الاتحاد السوفيتي في الوقت الذي بدأ فيه نظام صدام حسين يتطلع إلى سيادة العالم العربي... فكان غزوه للكويت وتحفز الرئيس صدام لاستكمال غزواته لدول الخليج... وكانت حرب الخليج الثانية التي أدت إلى طرد صدام من الكويت وهنا علينا أن نعلم

أن حرب الخليج الثانية هي الحرب الأولى التي تخوضها الولايات المتحدة مطلقة اليد بعد ظهور النظام العالمي الجديد وانفرادها بالعالم شرقاً وغرباً... ثم جاءت حربها الثانية بضرب نظام ميسولفيتش دكتاتور صربيا وإسقاطه... وأمام تعاظم قوة الولايات المتحدة وانفرادها بالساحة الدولية برزت أمامها قوة المد الإسلامي النابع أساساً من العالم العربي وجنوح بعض روافده إلى مقاومة النظم الحاكمة بالعنف الدموي... ثم امتد هذا العنف إلى قلب إسرائيل في صورة كفاح مسلح ضد الاحتلال قادته منظمات إسلامية... ثم تواصل المد ليطاول الولايات المتحدة ذاتها وفي أهم مدنها... فكانت انفجارات مركز التجارة بنيويورك... وكانت أيضاً عمليات النسف المتواصلة لسفارات الولايات المتحدة بالخارج!!!

وأمام هذه المستجدات برزت رؤية جديدة وتوجهات جديدة عند نفر غير قليل من الساسة وقادة الرأي الأمريكيين حول ظاهرة الإسلام السياسي وسرعة انتشاره في دول العالم العربي بوجه خاص وجنوح بعض روافده إلى العنف الدموي لإسقاط النظم الحاكمة ومناهضة الولايات المتحدة وحليفتها إسرائيل!!!

وجاءت ضربة الحادي عشر من سبتمبر وبغض النظر عمن ارتكبها مناسبة عظيمة لضرب الإسلام السياسي في عقر داره... والإجهاز على النظم الدكتاتورية التي أفرزته... وكانت البداية أفغانستان أو تنظيم القاعدة الذي اتخذ من أفغانستان موطناً للحركة والامتداد... وكان

الترويج الأمريكي لأسطورة أسامة بن لادن والتنظيم الإسلامي الذي يمثله!!!

واليوم تبدو معالم الإستراتيجية الأمريكية بكل أبعادها... في التصريح والتلويح بالخطط والنوايا... وربطها بقوالب الديمقراطية وحقوق الإنسان وكأنما سقط سهواً من وعي الإدارة الأمريكية أن غياب الديمقراطية وانتهاك حقوق الإنسان لم تكن سوي ثمرة جهودها وثمن حماية مصالحها الحيوية في العالم العربي!!!

ترى هل ننتظر حتى تدفعنا أمريكا في طريق الديمقراطية التي تريدها؟!أم نبدأ في مسيرة الإصلاح السياسي التي تأخرت كثيراً وأخرتنا تماماً عن ركب التنمية والتقدم؟! أعتقد أنه لم يعد هناك خيار فالعاصفة قادمة؟!

الاعتذار

لا رجعة عن الحرب!!! فقد قرر الأمريكيون ضرب الإسلام في عقر داره... وعقر الدار هو العالم الإسلامي المريض بأوهامه... الكسيح بتوجهاته فما الذي أعدته مصر لمواجهة هذه الحرب؟! وما الذي دبرت لمواجهة تداعيات ما بعد الحرب!!!

فيما نعلم والله أعلم أن الحكومة مطمئنة جداً على شعبها إذا ما وقعت الواقعة واندلعت الحرب وهي أشد اطمئنانا لتداعيات ما بعد الحرب!!! ولم نسمع حتى الآن بياناً أو تصريحاً يحدد المواقف أو يعين التدابير الواجب اتخاذها لحماية المصالح العليا لمصر أثناء الحرب ولا بعد الحرب اللهم إلا قراراً حكومياً يتيماً بفرض الأسعار الجبرية على بعض السلع الأساسية... فمما لا شك فيه أن النية مبيته على شن حرب خاطفة على العراق... فكل شئ قد أعد لضرب العراق واحتلاله... وفرض نظام حكم جديد بديل لحكم صدام حسين... والهدف غير المعلن هو القضاء على الإسلام السياسي بروافده العنيفة وربما المعتدلة أيضا!!!

والدول العربية... كل الدول العربية في حالة عجز كامل عن مواجهة الولايات المتحدة وحتى مواجهة صدام حسين نفسه ومطالبته

بالتخلي عن الحكم تجنباً للحرب التي لن يدفع ثمنها في النهاية سوى الشعب العراقي والاقتصاد العراقي!!!

ما العمل مثلاً إذا ما انتهزت إسرائيل فرصة الحرب وضربت ضربتها وقضت على السلطة الفلسطينية وأعادت ضم غزة والضفة الغربية إلى الكيان الإسرائيلي؟! ما موقف مصر إزاء هذه الانتهازية وما موقف الدول العربية؟!

ثم ما العمل إذا ما اقتحمت أفواج الفلسطينيين والعراقيين أراضي الأردن وحولوا المدن الأردنية إلى مخيمات لاجئين وهبطوا بالاقتصاد الأردني إلى ما تحت الصفر!!!

ما ترتيبات مواجهة هذا الاحتمال مصرياً وعربياً ودولياً؟! ثم ما العمل في الخسائر المباشرة وغير المباشرة التي ستتكبدها مصر والدول العربية من جراء هذه الحرب... ومن يعوض مصر والدول العربية عن هذه الخسائر!!!

لا توجد أي إجابة محددة عن هذه التساؤلات... وربما لم تفكر حكومتنا أصلا في طرحها... وبالتالي لم تنشغل بالبحث عن الإجابة عليها وكأننا لسنا على حافة الحرب... أو كأن الحرب القادمة بعيدة عن ديارنا!!!

أعتقد أن مواجهة الحرب القادمة لن تخرج عن ثلاثة مواقف: الأول القدرة على الضغط على الولايات المتحدة لمنع الحرب... الثاني القدرة

على تحمل أضرار الحرب... الثالث القدرة على إلزام الولايات المتحدة بدفع التعويضات المترتبة على الحرب!!!

ولا أخال أننا نملك القدرة على اتخاذ أي من هذه المواقف... فلا نحن بقادرين على ردع الولايات المتحدة ومنعها من شن الحرب... ولا نحن بقادرين على تحمل الأضرار المباشرة التي سوف تسببها الحرب ولا نحن بقادرين على إلزام الولايات المتحدة بتعويضنا عن الأضرار!!!

وأمام هذا العجز الفاضح ترتفع اللاءات معلنة رفض الحرب... وتزأر الحناجر مطالبة بمنع الحرب!!! كيف إذا لم يكن وراء الحكومة شعب يساندها وخطط ترشدها إلى أساليب المواجهة الفعالة في هذه الظروف الدقيقة؟! وأمام غموض المواقف تساءل الكثيرون هل نحن مع أمريكا أم ضد أمريكا... أم نحن على الحياد أمام ما تفعله أمريكا في عالمنا العربي؟! ثم هل هناك متسع من الوقت كي نفعل شيئاً يدرأ الخطر عن بلادنا؟!

أسئلة دقيقة يصعب الإجابة عليها دون مخاطرة كبيرة! لماذا؟! لأن القصة طويلة ومعقدة وتعود إلى أزمان بعيدة عندما فرضت الولايات المتحدة وصايتها على معظم الأنظمة العربية، ونحن الآن نقف عند نهايتها وأمام تراكماتها وتداعياتها... لذلك يصعب تماماً رؤية حل أو حلول أو اتخاذ مواقف غير مواقف الشجب والاستنكار الموجهة وغير الموجهة!!! وكل ما تستطيعه الحكومات العربية الآن هو تحسين صورتها عند الرأي العام العربي والدولي خوفاً من نوايا الولايات المتحدة وعزمها المعلن عن تغيير العديد من الأنظمة العربية... فهذا العزم يحمل

في طياته رفضاً لبعض النظم العربية... وإرادة فرض نظم بديلة تحت مسمى النظم الديمقراطية!!! ولكن الراجح... وكما كتبت مراراً أن العزم الصادق للإدارة الأمريكية لا يتجه إلى إقرار نظم ديمقراطية عربية تخدم مصالح الشعوب العربية... ولكن نظماً تخدم مصالح الولايات المتحدة وحلفائها خاصة إسرائيل ولو كانت الولايات المتحدة صادقة في عزمها لبادرت بالاعتذار رسمياً عن زرعها ومساندتها لدكتاتوريات عربية عديدة طيلة أكثر من نصف قرن... ولبدأت فوراً بوضع إسرائيل في حجمها وتسكين الفلسطينيين في دولتهم!!! ولما تركت هذا الفجور الذي تمارسه حكومة شارون والذي فجر غضب وثورة الشارع العربي!!!

لقد كان أمام الولايات المتحدة حتى نصدقها أفعال كثيرة... واختيارات كثيرة لتبرهن بها عن مصداقيتها... وحسن نواياها في إنقاذ حقوق الإنسان العربي من قبضة الدكتاتورية لينطلق في البناء على أسس الديمقراطية الحقه...

فوراء الولايات المتحدة تاريخ دموي طويل في مساندة نظم دكتاتورية داست على شعوبها بالأقدام... وارتكبت ضد حقوق الإنسان أفظع الجرائم في أمريكا اللاتينية وفي آسيا وأفريقيا والشرق الأوسط!!!

دعونا من العواطف الجباشة... والصراخ في الفراغ... ولنكن ولو لمرة واحدة شجعاناً في الاعتراف بالحقائق ومطالبة الولايات المتحدة بالاعتذار أولاً للشعوب العربية عما ذاقته من انتهاكات لحقوق

الإنسان طيلة نصف قرن فضلاً عما خسرته من دماء وأموال في حروب واعتداءات على أيدي إسرائيل حليفتها الإستراتيجية التي زرعتها ورعتها في قلب العالم العربي دون أدنى اعتبار لمشاعر أمة بأكملها!!!

هل تملك الولايات المتحدة شجاعة الاعتذار عن سياستها في دعم الدكتاتورية قبل الكلام عن وعودها بالديمقراطية؟!

المكارثية الجديدة

ليس جديداً في التاريخ الأمريكي الهوس الشديد ضد الإرهاب الذي انتاب الإدارة الأمريكية الحالية والذي ظهرت أعراضه في "نخبة الصقور" من الساسة الأمريكيين... فقد ظهر في أواخر الأربعينات... وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية رجل أمريكي اسمه مكارثي... دخل إلى الساحة السياسية من باب الهوس ضد الشيوعية... وكان الشعب الأمريكي في ذلك الوقت شديد الحساسية لكل ما هو شيوعي أو ما يشتبه في أنه شيوعي سواء كان إنساناً أو حيواناً أو جماداً!!! وكان معنى الاتهام بالشيوعية في ذلك الوقت أن ينتهي المتهم إلى العزل والمحاكمة والنفي بل والإعدام والتصفية الجسدية!!!

وقد شجع خوف الأمريكيين من انتشار الشيوعية في أمريكا بعد سقوط أوروبا الشرقية في أيدي السوفيت وانتشار الدعوة الماركسية في دول العالم خاصة دول العالم الفقير المتطلع إلى التحرر والتقدم... شجع هذا الخوف مكارثي على مواصلة نشاطه واجتذاب نفر غير قليل من صقور النخبة السياسية الأمريكية ليكونوا عوناً له في حركته التي تدعو إلى تطهير أمريكا من الشيوعية والشيوعيين... وقطع دابر كل مسئول تحوم حوله شبهات في أنه يميل إلى الفكر الشيوعي... أو يدعو له أو

يتصرف وفقاً لمبادئه... وقد اتسعت دوائر الاتهام عند مكارثي حتى شملت عشرات الأمريكيين من موظفين ومسئولين... ومهنيين... وحتى فنانين... وقد وجد هذا الهوس ضد الشيوعية تأييداً وتصفيقاً عند الشعب الأمريكي... وقابله الكثيرون من الزعماء والقادة الأمريكيين بالامتنان والتقدير... واليوم ترتسم صورة المكارثية الجديدة أو البوشيزم بظهور جورج بوش الابن على المسرح السياسي بنظرية جديدة اختمرت عناصرها بفعل الأحداث المتوالية على الساحة الدولية والعربية... وتفجرت تطبيقاتها... في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١... وتقوم دعائمها على ظاهرة الإسلام السياسي الذي بدأ يطفوا على السطح ويفرض وجوده في الدول الإسلامية والدول العربية بوجه خاص... وكانت أول بوادره في الثورة الإسلامية الإيرانية ضد نظام الشاه الذي كانت تدعمه الولايات المتحدة وترتبط معه بمواثيق سياسية وعسكرية... وعندما سقط الشاه بعد عجز الولايات المتحدة عن إنقاذه... ومحاولتها احتواء النظام الإسلامي الجديد... اهتزت المحافل السياسية الأمريكية... ونشطت مخابرات الولايات المتحدة في تتبع النظام الجديد... الذي فاجأ العالم بحكم رجال الدين لأول مرة في التاريخ الحديث!!!

وكانت نوايا الإمام الخميني واضحة منذ اليوم الأول للثورة الإيرانية فقد أعلن عن عدائه الشديد للولايات المتحدة ونادى بتصدير الثورة الإيرانية إلى أقطار العالم الإسلامي بل وإلى دول العالم أجمع... وبدأ التحرش الإعلامي الإيراني بنظام صدام حسين العدو اللدود للإمام الخميني والذي طرده من منفاه في النجف الأشرف ليلتجئ إلى

فرنسا قبيل سقوط الشاه بسنوات... وكانت ردود الفعل العراقية شديدة الوقع مما فتح الأبواب على تخوف صدام حسين من تحرك الشيعة العراقيين ضد نظامه... ثم اندلعت موجات العنف الإرهابي داخل العراق... ثم جاء حادث تفجير المدرسة الموسوية في بغداد فقد كانت هذه الحادثة كفيلة بانتحال الأعذار لمهاجمة إيران وغزوها عسكرياً... ووراء هذه التطورات... كانت المخابرات المركزية الأمريكية... ترصد ... وتسجل... وتعد التقارير... ووجدت الإدارة السياسية الفرصة لضرب الثورة الإيرانية... فقد كانت تتربص بها ولكنها لا تجرؤ على إجهاضها بعمل عسكري مباشر... فلم تكن الظروف الدولية مواتية... وكان الاتحاد السوفيتي مازال ملء السمع والبصر يقف حائلاً ضد نوايا الولايات المتحدة في هذه المنطقة الحساسة من العالم... وكانت أفضل الاختيارات أمام الإدارة الأمريكية هو دفع صدام حسين بالإغراء المادي والمعنوي إلى مهاجمة إيران... وتصويرها من خلال التقارير الاستخبارية على أنها دولة بغير جيش فقد تفككت القوات المسلحة الإيرانية بفضل الإمام الخميني وأتباعه... وتدهورت الأوضاع الاقتصادية... وعمت الفوضى كل أجهزة الدولة حتى ظن الكثير من المراقبين السياسيين أن إيران أصبحت لقمة سائغة لمن يريد غزوها والتهامها!!!

وهكذا كان تصوير المخابرات الأمريكية للأوضاع في إيران... وهكذا اعتقد صدام حسين عندما قرر توجيه جيشه إلى إيران... وكان في هذا التصوير وذاك الاعتقاد جانب كبير من الحقيقة... فقد كان الجيش الإيراني في بداية الثورة يعاني التفكك والضعف... وكانت

مذبحة الجنرالات التي أجازها الإمام الخميني قد أخلت بهيكل الجيش الإيراني... كما أن الضعف والخلل قد أصاب معظم أجهزة الدولة الإدارية والخدمية... وفي الجملة كانت إيران الدولة في تحول من نظام إلى نظام مما أثار أطماع صدام وفتح شهيته لاحتلالها وإسقاط نظام الخميني حماية لنظامه من هذا الخطر الشيعي الداهم!!!

وذهب صدام إلى إيران وعاد بعد أكثر من ثماني سنوات يخفي حنين ... فقد اشتد عود القوات الإيرانية على نيران هذه الحرب وبدأ صدام يفكر في شغل قواته العائدة من ساحة القتال... ويبحث عن نصر عسكري وسياسي يرضي طموحه في زعامة العالم العربي... وعادت ذاكرة الرجل وجماعته إلى ما ارتكبه من قبل عبد الكريم قاسم عندما أراد غزو الكويت وضمها إلى العراق... ووجدت الفكرة تشجيعاً غير مباشر من الإدارة الأمريكية وكانت على علم مسبق بتوقيت الغزو العراقي فقامت فوراً بنقل أمير الكويت ومعظم المسئولين الكويتيين إلى الخارج قبيل وصول الغزاة إلى تخوم الكويت بساعات قليلة... وعندما تمكن الغزاة من الفريسة... واستولوا على الكويت بدأت ردود الفعل الأمريكية والعربية... وصار التحالف العربي الأمريكي لإخراج صدام من الكويت... وخرج منها مدحوراً بعد أن دمرها وأحرق المئات من آبار البترول الكويتية... وبدأ مسلسل الحصار ضد نظام صدام... وتجويع الشعب العراقي لعله يثور ضد جلاديه... ورغم موت ألاف الأطفال والشيوخ ومعاناة ملايين العراقيين فقد كان صدام يتاجر سراً في أقوات الشعب العراقي مستخدماً برنامج النفط مقابل الغذاء في تهريب النفط العراقي والاستيلاء على عشرات المليارات من

ثمنه وإخفائها في حسابات سرية بالخارج... وظل الرجل رغم كل الخلاف مع الولايات المتحدة المرشح الأمثل لإجراء التغييرات التي تنشدها الولايات المتحدة في العالم العربي بعد ضربة سبتمبر... وظلت أساليبه واستفزازاته وتحدياته تجد الاستنكار من جيرانه وأعدائه وترشحه لأن يصبح ركيزة الإدارة الأمريكية في تغيير النظم الحاكمة في الشرق الأوسط!!!

الحقيقة الحاضرة

لم يكن مستحباً أن تتأخر القمة العربية عن موعدها الطبيعي... وكان الموعد الطبيعي على الأقل قبل شهرين عندما تفجرت الأزمة بين الولايات المتحدة والعراق!!!

ولم يكن مستحباً أيضاً أن تجتمع القمة العربية اجتماعاً عادياً... فقد كان من المفروض أن تجتمع اجتماعا طارئاً... فالظرف الدولي والمحلي يفرض هذا الاجتماع الطارئ... وإلا فمتى يكون اجتماع القمة طارئاً إذا لم يكن في هذا الظرف المعتم الكئيب!!!

وإذا كان المؤتمر قد رفض بالإجماع ضرب العراق... فقد سبقه بأيام عديدة إصرار الإدارة الأمريكية على ضرب العراق... وتأكيد الرئيس بوش على ضرورة خلع صدام حسين حتى ولو وصل الأمر إلى حد الحكم الأمريكي المباشر للعراق!!! وهذا التصريح في واقعه إحراج للرؤساء العرب... وتحذير لهم من اتخاذ قرارات مخالفة للقرار الأمريكي... عند انعقاد القمة العربية!!!

وقد تكون تصريحات الرئيس بوش الأخيرة هي أوضح التصريحات التي أطلقها الرئيس الأمريكي منذ بداية الأزمة... إذ تضع تحت الضوء النوايا الأمريكية الحقيقية من ضرب العراق... والهدف المبيت من خلع

صدام حسين... فالولايات المتحدة ووراءها العالم الغربي كله لا تبحث عن أسلحة دمار شامل... أو غير شامل... ولكنها تبحث عن اجتثاث بؤر القوة والعنف التي يمكن أن تمتد إليها وتدمر أمنها أو تعطل مصالحها وهذه البؤر تمحورت حول الإسلام السياسي... أو بمعنى آخر حول التيارات الإسلامية التي تخرج من بعض الدول العربية وتتخذ من العنف سبيلاً لتحقيق أهدافها!!! وبمعنى ثالث فالإدارة الأمريكية ترى في هذا العنف إرهاباً يهدد مصالحها في الحال وفي المستقبل... وهذه فكرة قديمة ولكنها استجدت وفرضت وجودها على الإدارة الأمريكية منذ كارثة سبتمبر... فقد ألهبت هذه الكارثة الحس السياسي الأمريكي وأرهبت الإدارة الأمريكية وهزت الثقة في مؤسساتها... بل وأهانت كبريائها الدولي كقوة عظمى تتسيد العالم طولاً وعرضاً... وبالعربي الفصيح الولايات المتحدة تشرب الآن من البئر الذي بصقت فيه فهي التي زرعت ورعت معظم النظم العربية التي أنتجت الإرهاب وكان طبيعياً أن يأتي الزرع بهذا الثمر المر الذي لم تستطع الولايات المتحدة أن تحتمل مذاقه!!!

وهل ننسى أن الولايات المتحدة هي التي صنعت وساندت ودعمت نظماً كثيرة في عالمنا العربي... وبدلاً من أن تطالب هذه النظم بالاعتدال في الحكم طالبت الشعوب بالسكوت عن أخطائها وجرائمها، بل ولم تبد حراكاً عندما اكتشفت معارضة التيار الإسلامي وروافده لتوجهات هذه النظم بسبب مخالفتها الصريحة لتعاليم القرآن والسنة...

ومنذ زمن طويل... وبالتحديد منذ بداية العنف الدموي المسلح في مصر وغير مصر كان العلاج ممكناً بالديمقراطية... فقد برز بوضوح التعارض الصارخ بين توجهات معظم النظم العربية الحاكمة... وأبسط قواعد الديمقراطية وحقوق الإنسان... فلم يكن منطقياً أن يواجه الفشل الاقتصادي والقمع السياسي بالتصفيق الحاد من القوى السياسية المعارضة وخاصة التيار الإسلامي بروافده المعتدلة والمتطرفة... فكل الأديان ومنها الدين الإسلامي ترفض الطغيان وتدينه... وترفض الفساد وتدينه... وترفض إهدار حقوق الإنسان وتدينه!!! وليس من المقبول بعد تسلط نظم تفرز هذه السلبيات أن تظل تحت رعاية الولايات المتحدة وحمايتها... وأن تنتظر الإدارة الأمريكية الخير على يديها!!!

لقد كان معروفاً... وبمؤشرات عديدة واضحة أن الولايات المتحدة تقوم " بتربية الإرهاب " بالوكالة من خلال هذه النظم الحاكمة!!! فقد أوغلت في الاستبداد بالحكم... وانتهت إلى فشل اقتصادي وفساد سياسي مهد الأرض لكل أنواع الإرهاب والتطرف... وكان طبيعياً في هذا المناخ أن ينهض بعض نشطاء التيار الإسلامي من معتدلين ومتطرفين باجتهادات وتفسيرات قد تصيب وقد تخطئ... ولكنها تصب في النهاية في خانة الرفض للاستبداد والفساد الذي تمثله هذه النظم!!!

هذه هي الصورة الحقيقية التي أرقت الإدارة الأمريكية وحركت جيوشها اليوم ضد صدام... لا من أجل نزع أسلحة الدمار الشامل

ولكن من أجل استبدال النظام العراقي بنظام جديد يقول الرئيس بوش أنه سيكون نموذجاً للديمقراطية في العالم العربي!!!

ولكن لم يشرح لنا الرئيس بوش كيف يمكنه خلع نظم دكتاتورية وزرع نظم ديمقراطية في هذه الظروف المعقدة الدقيقة كما حدث لليابان وألمانيا؟! وهل نموذج اليابان أو ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية يمكن تكراره اليوم في عالمنا العربي؟! لقد ظلت الدولتان خاضعتان للاحتلال والسيطرة الغربية لثلاثة عقود على الأقل فهل ستكون ديمقراطيات الرئيس بوش على نفس هذا النسق الذي مزق ألمانيا... واستعبد اليابان لسنوات طويلة؟!

إن الشعوب العربية بنخبتها وقواها الوطنية مطالبة اليوم بمراجعة عاجلة لإعادة ترتيب البيت من الداخل... لأن إعادة ترتيب البيت من الخارج على الطريقة الأمريكية لن يكون على الأرجح سوى في صالح الولايات المتحدة وحليفتها إسرائيل!!!

الفصل الثاني

الصدمة

"كان ظاهر الإعداد للحرب تقليدياً... وكان باطنها غير تقليدي، ولم يكن الهدف فقط تدمير القوة العسكرية العراقية، ولكن الهدف الأهم تدمير البنيات الأساسية للدولة العراقية الصدامية وتشييد عراق جديد أكثر قدرة على خدمة المصالح الأمريكية في الشرق الأوسط.

وبين ظاهر الحرب وباطنها وقف الأمريكيون والبريطانيون يخططون ويرصدون بينما وقف في مواجهتهم العراقيون وبقية العرب يرقصون ويطبلون!!!"

جيوش الهواة

لم تسلط الأضواء كثيراً على الجيش الصدامي... ولم تستطع الملايين في صخب الكلام عن الحرب أن تتعرف على بعض الحقائق الأساسية حول القوات المسلحة العراقية... ولكن المعروف للرأي العام العربي أن الجيش الصدامي يتشكل من عدد هائل من الجنود يتجاوز النصف مليون جندي... وأنه جيد التسليح الثقيل والخفيف من مدافع ودبابات وأن تحت يده صواريخ عابرة وربما أسلحة دمار شامل يخفي وجودها حتى يفاجئ بها أعداءه... وأن مستوى التدريب والتجهيز في هذا الجيش غاية في الروعة... وأن هناك قوات خاصة وحرسا جمهورياً شديد البأس وفوق كل ذلك فرق فدائية من كل نوع ولون...

وقد عمد صدام حسين دائماً إلى استعراض قواته في المناسبات العامة والتلويح بما عنده من أسلحة فتاكة وقوة لا تقهر... ولكن الواقع أن جيش صدام لا احتراف فيه ولا تخصص في الأداء العسكري... فكوادره وجنوده وضباطه وفرقه الخاصة يحكمها الولاء لا الكفاءة... وكبار ضباطه تزكيهم الثقة لا القدرة العسكرية... والجيش كله في النهاية يتشكل من الهواة لا من المحترفين... ومن كل ما يقذف به حزب البعث الحاكم من عناصر تؤمن بالرئيس... وتركع

أمامه وتضع صوره خلف مكاتبها!!! أما التدرج العسكري فقد كان مفقوداً بسبب أهل الولاء من صغار الضباط ولم تفطن الجماهير العربية إلى الحقيقة... ولم تعرف أن الرئيس صدام الذي كان يتحلى دائماً بالزى العسكري لم يتخرج من أي مدرسة عسكرية وأن كبار وزرائه الذين لا يبارحون الزى العسكري لا يعرفون في معظمهم شيئاً من فنون الحرب... بل كان الرئيس يلزم وزراءه بارتداء زى الجنرالات والمارشالات من باب استعراض القوة والبأس!!! أما أسلحة الجيش العراقي من دبابات وآليات ومدافع فقد انتهى عمرها الافتراضي ـــ بفعل التقادم التكنولوجي ـــ بعد الحرب العالمية الثانية ولم تعد على المستوى الذي يؤهلها للحروب الإلكترونية الحديثة ناهيك عن سلاح الطيران الذي فقدته العراق في حرب الخليج الثانية!!!

وربما لهذه الأسباب وغيرها لم تستخدم الولايات المتحدة أسلحة الدرجة الأولى بل استخدمت أسلحة الدرجة الثانية والثالثة... وكان عمادها القوة الجوية الهائلة التي تملكها في مقابل لا شئ يملكه العراق... فالسماوات المفتوحة كانت عماد الحرب وعدتها الرئيسية... فقد قام سلاح الطيران الأمريكي والبريطاني بالجهد الأكبر بينما كانت القوات البرية تخترق صحراء العراق في سرعة وأمان... في الوقت الذي انقضت فيه القوات البريطانية على شبه جزيرة الفاو!!! أما محور الشمال فقد كان محوراً احتياطيا ظل الأمريكيون يداعبون به صدام والأكراد والأتراك... ولكن في النهاية كانت الصورة أن جيوش صدام تتعرض لهجوم كاسح من جبهات ثلاث!!!

وكانت باكورة الهجمات الجوية... ضربة مركزة بالطائرات والصواريخ على قصر صدام بالعاصمة العراقية... وقد استهدفت هذه الضربة قتل صدام ومن معه من القادة والوزراء والمستشارين... وقيل بعدها إن صدام يمكن أن يكون قد قتل في هذه الضربة الجوية العنيفة التي هزت أركان بغداد وأشعلت النيران في القصر والمنطقة المحيطة به... ولكن توالت بيانات تؤكد وجود صدام على قيد الحياة وسيطرته الكاملة على حقل المعركة ثم شهدنا فجأة الرئيس صدام يلقى بيانات من مقره السري ويعد الأمريكيين بالموت على تخوم بغداد... ويطالب الشعب العراقي بالنضال حتى النصر... وتوالت الأيام وسقطت جزيرة الفاو في أيدي القوات البريطانية... وبدأت محاولات التهام البصرة... بينما تقدمت القوات الأمريكية صوب كربلاء والنجف الأشرف... ولم تلبث أن حوصرت المدينتان خلال الأيام العشرة الأولى من الحرب... وواصلت القوات الأمريكية تقدمها نحو بغداد... وفي هذه الأثناء بدأت القوات الكردية بمساعدة قوات أمريكية محمولة جواً التحرك من الشمال لمطاردة القوات العراقية التي انسحبت من مواقعها... واقتربت القوات الأمريكية من بغداد بعدما سقطت مدينة البصرة في أيدي القوات البريطانية... وبدأ الكلام عن الأهوال التي ستلاقيها قوات التحالف إذا حاولت اقتحام بغداد أو حتى الاقتراب منها... وتناثرت الأنباء عن الاستعدادات الصدامية الرهيبة وخنادق البترول التي ستواجه الزحف الأمريكي على العاصمة... وهنا ظهر صدام يتمشى في شوارع بغداد وحوله جموع من الشعب العراقي تحييه ويحييهم... وقال الخبراء إن الذي ظهر هو بديل صدام أو شبيهه...

وإن الهدف من هذه اللعبة هو رفع معنويات الشعب العراقي وتأكيد صمود قيادته وإصرارها على النصر!!!

وكان سعيد الصحاف وزير إعلام صدام يقوم بواجبه خير قيام... ويواجه يومياً تصريحات القيادة الأمريكية والبريطانية بتصريحات القيادة العراقية... وكان الجانبان متناقضان في تصريحاتهما على طول الخط فبينما كانت قيادة التحالف تتكلم عن الانتصارات والأسرى العراقيين كانت قيادة العراق تتكلم على لسان سعيد الصحاف عن الاندحار المهول للقوات المتحالفة على كل الجبهات... والخسائر الكبيرة التي لحقتها على أيدي الحرس الجمهوري المظفر... وفدائيو صدام المغاوير!!! ولم يفهم أحد خلال المراحل الأولى والثانية للمعارك من الصادق ومن الكاذب فقد كان الأمريكيون يمعنون كثيراً في السكوت وعدم الرد على تصريحات الصحاف أو حتى مجرد التعليق عليها... ولكن الشعب العراقي والشعوب العربية لم تكن تشك في مصداقية الصحاف والقيادة التي يمثلها... وكان كل تصريح عراقي يحمل أجمل الأنباء عن المعارك الدائرة ويبشر بالنصر المبين... بينما كانت جموع العراقيين تقابل هذه الأنباء بالرقص والتهليل مرات عديدة على مدار الأربع وعشرين ساعة!!! لقد كانت الجماهير العربية تتوقع الموت الزؤام لجيش "العلوج" كما وصفهم الصحاف!!!

وبدأت الشكوك تساور الجماهير عندما سقط مطار بغداد في أيدي القوات الأمريكية... ورغم نفي سعيد الصحاف سقوط المطار مراراً فقد جرى الإعداد لتشغيل المطار من قبل قوات التحالف بينما توارد

أنباء عن اختراق القوات الأمريكية تخوم بغداد وتوغلها في بعض مناطقها ولكن سارع وزير إعلام صدام بتكذيب الأنباء القائلة بدخول القوات الأمريكية بغداد ثم عاد وأكد إبادة هذه القوات على أيدي القوات المسلحة العراقية... وقبل يوم واحد من سقوط بغداد دمرت القوات الجوية الأمريكية مجمعاً حكومياً وسط بغداد وتواترت الأنباء مرة أخرى عن وجود صدام داخل هذا المجمع مع بعض وزراءه... ثم فجأة ضربت القوات الأمريكية مقر تلفزيون الجزيرة ووزارة الإعلام وقتل أحد المراسلين وجرح آخرون ويبدو أنه جرت محاولات من بعض المراسلين لتتبع أرتال من السيارات كانت تخترق شوارع بغداد أثناء فرض القيادة العراقية حظر التجول دون أسباب معروفة... ورغم ذلك لم يكف سعيد الصحاف عن التأكيد على انتصار القوات العراقية ونفي دخول القوات الأمريكية بغداد واستيلائها على المدينة... وكان هذا التأكيد والنفي أخر ما قاله سعيد الصحاف من مقر وزارة الإعلام العراقي قبل اختفاءه المفاجئ!!!

وبعدها مباشرة كانت المدرعات الأمريكية تقتحم شوارع بغداد... وتتوغل فيها بسرعة فائقة... كان الجنود الأمريكيون يترجلون من حاملات الجنود... ويهرعون إلى احتلال المواقع الإستراتيجية بالعاصمة دون مقاومة عسكرية تذكر!!!

وكان هذا الاستسلام المفاجئ مثار العديد من التساؤلات التي لم تجد لها إجابة حتى اليوم؟!

الاستفاقة

في هذه الحرب الشديدة الفريدة... تكشف المعدن العربي... وبدت حقيقته منذ الساعات الأولى من بدء القتال... فقد ثبت أننا لا ندرك تماماً قدر أنفسنا... ولا قدر العدو الذي نواجهه... وأن الحساب الشعبي... والحساب الرسمي لا يجريان بنفس المسطرة... بل هناك حسابان... ومسطرتان... حساب يجريه الشعب بوسائله المتاحة وحساب يجريه الحكام بصلاتهم وروابطهم العلنية والخفية!!! الشعوب لا تدرى أن السبب الرئيسي للحرب أبعد من نزع أسلحة العراق وإسقاط النظام العراقي... ولكنه ضمان مصالح الولايات المتحدة العليا في هذه المنطقة الحساسة من العالم... ومصالح الولايات المتحدة العليا... هو خزان الطاقة البترولية الهائل الذي تعيش فوقه الشعوب العربية... هذا الخزان الهائل هو حلم الإمبراطورية الأمريكية في السيطرة على العالم خلال الأحقاب القليلة القادمة!!!

ولكن ما يبدد هذا الحلم... أو يضعف من احتمالات تحقيقه قوى جديدة صاعدة تنشط في طول العالم العربي وعرضه... وهي قوى تتسلح بالإسلام... وتنادى بتطبيقه كنهج في الحكم ومنها ما يشهر السلاح في وجه السلطات المحلية والقوى الخارجية التي تساندها...

ويعتبر العنف المسلح هو الوسيلة الوحيدة للخلاص من هذه النظم الاستبدادية... وإقامة الدولة الإسلامية التي تنشد الحرية والعدل والمساواة!!!

وقد اشتد خطر هذه القوى وامتد ليطاول الولايات المتحدة في عقر دارها وليهدد مصالحها في العالم أجمع ، ثم تجلت قدرة هذه القوى الإسلامية في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي... وقدمت أبلغ دليل على فاعليتها في مواجهة هذا العدوان المسلح على الشعب الفلسطيني!!!

وكل هذه الشواهد والدلائل تكفي لإقناع الإدارة الأمريكية بالخطر الذي تواجهه... والذي يهدد مصالحها الحيوية... ومن هنا كانت ضرورة تصفية الإسلام السياسي بكل فروعه.... ولم يكن ذلك ممكنا بغير السيطرة على العالم العربي... وفرض نظم سياسية جديدة تقبل تغيير الخطاب الديني... على الأقل في المساجد والمدارس ووسائل الإعلام...

هذا هو الهدف الحقيقي للحرب ضد العراق: مصالح كبرى حيوية تهددها صحوة إسلامية عنيفة!!!

أما النظرة الشعبية لهذه الحرب فهي لا تخلو من جهل بالواقع وقد أسهمت أجهزة الإعلام العربية في رسم ضباب كثيف من البداية حول جوهر القضية والأسباب الحقيقية التي تكمن وراءها فنحن لا ننكر عدوان الولايات المتحدة في الماضي والحاضر على الشعوب العربية... ولا نقر بحال حربها ضد الشعب العراقي... ولا نرجو لها النجاح في السطو على مقدرات العالم العربي البترولية ولا نقبل تأييدها المطلق

لإسرائيل ودعمها لجرائم حكومة شارون اليومية ضد الشعب الفلسطيني الأعزل... ولكننا نرفض من ناحية أخرى سلوك بعض النظم العربية وعلى رأسها نظام صدام وسياستها المعلنة والخفية... وشذوذها الشديد في التعامل مع الأسرة العربية والدولية...

ونرى أن هذه النظم جلبت بجهلها وشذوذها الكثير من المشكلات للعالم العربي وأغرقت الشعوب العربية في بحار من الأزمات التي كان من الممكن تجنبها أو معالجتها بأساليب أخرى غير الأساليب العقيمة التي استخدمتها... والمؤسف أن النظم العربية الأخرى لم تكن سوى متفرجة أو داعمة لهذه النظم الشاذة... ولم تجرؤ على اتخاذ أي محاولة جادة... لا على مستوى الحكام ولا على مستوى الجامعة العربية لتصحيح المسار أو صد هذه النظم عن التصرف المنفرد الذي تدفع ثمنه في النهاية كافة الشعوب العربية!!!

وأمام هذا التفكك... والتشرذم تستكمل إسرائيل مخططها الهادف لتصفية القضية الفلسطينية... وتواصل القوات الأمريكية تقدمها داخل العراق لتحقيق الأهداف التي حددتها الإدارة الأمريكية!!! بينما يتوالى مسلسل التضليل الإعلامي من طرف ومن آخر ليصب في أذهان الجماهير العربية صوراً مخالفة للواقع!!!

ماذا نحن فاعلون إذن في هذا الواقع المرير المؤلم ؟! ألم تأت الساعة التي نجتمع فيها على كلمة سواء لنطالب بالتغيير والتطوير ؟!

ماذا ننتظر حتى تأخذ الشعوب العربية مواقعها الطبيعية في حكم نفسها بنفسها... وحتى تصبح الجامعة العربية جامعة للشعوب العربية لا جامعة لنظم عربية لا تمثل شعوبها ؟!!

أين النخبة أين الأحزاب أين النقابات أين منظمات المجتمع المدني ؟!

من يعلّق الجرس

هكذا الحرب ضد العراق تعيد إلى الأذهان صوراً قديمة لتضحيات جديدة والشعوب وحدها في النهاية هي التي تدفع!!! أما النظم الحاكمة فوظيفتها توريط الشعوب في الأزمات والنكبات التي تؤدى إلى استنزافها في الحروب والغزوات!!! ولم يحدث في تاريخ العرب الحديث أن استأذن حاكم واحد شعبه في شن الحرب أو في اتخاذ قرارات من شأنها إشعال الحرب... فالشعوب تفاجأ دائماً بإرسال أبنائها إلى جبهات القتال بلا إعداد ولا تدريب لتلقى الضربات والاستشهاد فداء للا شيء ؟!!

هكذا كانت حروبنا في سيناء... وفي الجولان... وفي اليمن... وفي إيران... وفي الكويت... ثماراً لسياسات وتوجهات بعض النظم الحاكمة التي انفردت بالسلطة واستبدت بها في غيبة الإرادة الشعبية!!!

واليوم يتلظى الشعب العراقي بصواريخ البريطانيين والأمريكيين... ويعانى القتل والجرح والتجويع... لأن النظام الحاكم يريد الاستمرار في الحكم... وحلفاءه السابقين يرفضون له هذا الاستمرار!!! ويريدون استخدامه ــ كما استخدموه من قبل ــ مطية لأغراضهم في القفز إلى

المنطقة العربية وإعادة تقسيمها ورسم الأدوار الجديدة للنظم البديلة التي سيأتون بها!!!

هذه الصورة التعيسة لحرب العراق أو العدوان الأمريكي على العراق من المسئول عنها أولاً ومن المسئول عنها أخيراً؟! إنها الولايات المتحدة صاحبة أقوى إمبراطوريات العصر!!! هي المسئولة الأولى عن كل ذلك أما المسئول عنها أخيراً فهو النظم الحاكمة باسم الولايات المتحدة أو بدعمها ومباركتها... فكل هذه النظم تتحمل متضامنة مسئولية هذا التخريب المتواصل الذي يعيشه العالم العربي... فقد حكمت هذه النظم رغم أنف شعوبها وتصرفت في كل شيء في غيبة شعوبها... وطغت وبغت... بغير أن تحقق تقدماً لشعوبها... ثم أرادت أن تخرس كل صوت يرتفع بالحق... وكل مد شعبي يطالب بالتغيير... واستخدمت لتحقيق أهدافها أسوأ أنواع البطش والتنكيل ابتداء بالاعتقال والتعذيب وانتهاء بالتصفية الجسدية..

هكذا تعيش شعوبنا العربية في معظم أقطارها... محبطة مكدودة تجرى وراء لقمة الخبز ولا تدرى من أمورها شيئاً... أو ناقمة متحفزة تنتظر من يعلق الجرس في رقبة القط ولكنها لا تجده... لأن القط مدعوم من أمريكا... ومحاط برعايتها وعنايتها... وحتى إذا غضبت عليه وأرادت تأديبه أو خلعه فلها سياستها... ولها وسائلها... التي لا يشاركها في رسمها شعب عربي أو شعب غربي!!!

الولايات المتحدة وحدها هي التي تنفرد بالقرار... وتنفرد بالعالم... وما على البشرية إلا الرضوخ والاستسلام!!! انظروا الخطر الواضح

في هذه الوقفة الأوروبية ضد الولايات المتحدة... وإن كانت في عمقها وقفة مصالح دفعت بفرنسا وألمانيا أكبر دولتين في الاتحاد الأوروبي إلى معارضة الولايات المتحدة وبريطانيا... والتضحية بالوحدة الأطلسية التي تربطهم جميعاً ورفضهما تأييد الحرب ضد العراق... بل وشجبهما لهذه الحرب وتهديد فرنسا باستخدام الفيتو ضد الولايات المتحدة إذا طالبت مجلس الأمن بإصدار قرار يؤيد الحرب!!!

انظروا كيف لم يؤثر هذا الموقف في العملاق الأمريكي بل ولا حتى الموقف الروسي والصيني المعادى تماماً لتوجهات الولايات المتحدة... بمعنى أن أكبر الكتل الاقتصادية والسياسية في العالم تقف ضد الحرب... ولكن الولايات المتحدة وحليفاً فعلياً واحداً هو بريطانيا تقف مع الحرب وتخوضها بكل قوة وشراسة... تساندها في ذلك دول عربية عديدة بالقول وبالفعل رغم معارضة شعوبها أحزاباً ونقابات وجامعات ومدارس!!!

ماذا يمكن أن تفعل بنا الولايات المتحدة إزاء هذا الانفراد الجسور بالتصرف في مقدرات العالم ؟! وإذا لم تتحد الإرادات وتتدبر العقول هذه الظاهرة الخطيرة من الآن فكيف يمكن أن نواجه الولايات المتحدة غداً... وكيف يمكن لشعوب الأرض أن تقتضى حقوقها وأن تحمى كرامتها أمام هذا الديناصور الزاحف إلى منابع البترول الكبرى في قلب أهم وأخطر منطقة في العالم؟!

لا أمل في أي مواجهة من أجل مستقبل جديد بغير تحول عميق في فكر النخبة وسلوكها... فمازالت النخب العربية في معظمها متأثرة

جداً بسموم الإعلام العربي على امتداد نصف قرن... ومتأثرة أكثر بسلوكيات النظم العربية وإرهابها الممتد إلى عمق الإنسان العربي... والحرب ضد العراق تعتبر أفضل نموذج للتضليل الإعلامي من كل الأطراف... وهو تضليل متعمد يستهدف أصلاً ليس فقط الشعوب العربية ولكن أيضاً الشعوب الغربية التي ترفض الكثير من قواها الشعبية الحرب ضد العراق!!!

علينا التحرك في الاتجاه الصحيح لنمد أيدينا كشعوب إلى شعوب العالم الأخرى المتضررة من الديناصور الأمريكي الباحث عن السيطرة على منابع البترول العربي... وعندنا أحزاب ونقابات واتحادات وشخصيات قادرة على التحرك في هذا الاتجاه لخلق جبهة دولية موحدة لمواجهة هذا الديناصور الهائج!!!

هؤلاء المحللون

اليوم نستطيع نحن العرب أن نتحسس جراحنا... وأن نحصى قتلانا اليوم على ضوء حرب الخليج الثالثة سوف نكتشف حقيقة المأساة التي يعيشها العالم العربي منذ أكثر من نصف قرن... ويكفى متابعة تعليقات وتحاليل ما نسميهم بالخبراء العسكريين والمحللين السياسيين العرب الذين انتقاهم الإعلام العربي دون غيرهم من كبار العسكريين... يكفى متابعة هؤلاء على شاشات التلفزيون... لنكتشف الفضيحة الكبرى والتي تتمثل في التفاهة والسطحية التي ميزت معظم المعلقين والمحللين ومن بينهم مع الأسف جنرالات كبار في الجيوش العربية... ووزراء دفاع سابقين في الحكومات العربية...و يبدو أن معلوماتهم قد انقطعت منذ الحرب العالمية الثانية... وأن بعضهم لم يفهم شيئاً من حرب الخليج الثانية ولم يتعلم شيئاً من التكنولوجيا الجديدة التي قلبت تماماً أساليب الحرب... وحولتها إلى حرب من البعد بعدما كانت حرب مواجهة بين مدرعات ومدرعات وبين مشاة ومشاة... فهذه الأساليب القديمة في الحروب والغزوات لم تعد مستخدمة سوى في الجيوش العربية التي لم تتمكن حتى اليوم من تحديث أدواتها... وتطوير وسائلها رغم التحول الكبير الذي لحق الجيش الإسرائيلي... والتطوير المتواصل لأدواته

ووسائله... خاصة سلاحه الجوى وسلاحه الصاروخي حتى صار في تفوق دائم على كافة الجيوش العربية... وقدرة تامة على مطاولة أي عمق عربي على امتداد الشرق الأوسط!!!

وعندما نسمع قائداً عسكرياً كبيراً ووزيراً سابقا للدفاع يعلق على ما يجرى على الساحة العراقية من قتال بقوله: إن الأمريكيين لم يحققوا أي انتصار حتى الآن... فلم يستطيعوا دخول أي مدينة عراقية أثناء زحفهم على بغداد... بل تركوا وراءهم مدنا حصينة سوف تنقض على خطوطهم الخلفية وتهدد طرق إمدادهم... وهكذا يبدو تخطيطهم فاشلاً... وهزيمتهم محققة!!! عندما ينطق قائد كبير سابق بهذا الكلام تعليقاً على ما يجرى فوق أراضى العراق فلابد أن يكون عقله متوقفاً عند الحرب العالمية الثانية أو على الأكثر عند حرب فيتنام ولابد أن معلوماته العسكرية وخبراته الميدانية تعود به إلى ما قبل حرب الخليج الثانية عندما كان من الضروري في العلم العسكري أن تتقدم القوات المهاجمة على جبهة أو جبهات دون أن تترك وراءها مقاومة تذكر... وأن القوات الأمريكية المهاجمة لم تستطع اقتحام هذه المدن والقضاء على مقاومتها قبل أن تتقدم إلى الأمام... وقد نسى هذا القائد الهمام أن هذه المدن كلها محاصرة جيداً من الخارج ومراقبة جيداً من خلال البر والجو... وبالتالي فإن تحركها أو تمردها أو ضربها القوات الأمريكية من الخلف يعتبر شبه مستحيل مع وجود رقابة أرضية حول المدن... ورقابة جوية تتحكم تحكماً مطلقاً في سماء العراق!!!

ومعلق آخر يعتبر من قادة أحد الحروب العربية الكبرى... صاحب نظريات استراتيجية في الحرب البرية لا يتردد في التركيز على أخطاء الاستراتيجية الأمريكية التي لم تقدر جيداً إمكانيات الجيوش العراقية والفرق الفدائية الصدامية ففوجئت بمقاومة عنيفة في كل المدن التي واجهتها في زحفها داخل العراق وبالتالي فقد اضطرت إلى تجنب هذه المدن ومواصلة الزحف إلى بغداد تاركة وراءها خطوط إمداد طويلة تعرضها للخطر المحقق!!! ومن عجب أن هذا القائد الذي ركز انتقاداته على طول خطوط الإمداد والمشاكل التي تسببها للقوات الأمريكية... هذا القائد يبدو أنه مازال يتصور أن الإمداد يتم بالبغال أو وبالسكك الحديدية... ولم يضع في اعتباره أن السماء مفتوحة أمام القوات الأمريكية... وأن الأسطول الجوي الأمريكي يستطيع إمداد القوات الأمريكية في أي نقطة على طول خطوط الإمداد... وبالتالي فإن طول خطوط الإمداد لا يشكل عقبة حقيقية في وجه القوات الأمريكية الزاحفة نحو بغداد!!! فهذا الفكر القديم ما كان يجب توظيفه في مقابلات تلفزيونية أو إعلامية على هذا النحو لأنه يشكل بكل المقاييس فضيحة عسكرية وعلمية... يفوح منها الجهل والادعاء الذي لا يمكن تفهمه إلا في إطار الغيبوبة الإعلامية التي تسعى النظم العربية إلى فرضها على الشعوب العربية حتى لا تستشعر آلام الهزائم التي تلحق بجيوش صدام حسين على امتداد معظم الجبهات... وحتى تظل مغيبة تحلم بالأمل في انتصار عراقي ساحق على قوى العدوان!!!

ويتملك الخبراء العجب عندما يسمعون هذا الفريق من المحللين العسكريين العرب يتحدثون عن الهزيمة التي تنتظر القوات الأمريكية

والبريطانية الغازية إذا حاولت دخول بغداد... ويتصورون أن الاستيلاء على هذه المدينة أو غيرها لابد أن يتم من خلال حرب الشوارع التي تعلموها في المدارس العسكرية منذ نصف قرن... ويستخلصون من ذلك أن الجيوش الغازية سوف تعجز عن خوض حرب الشوارع التي تتلاحم فيها الأيدي والأسلحة البيضاء والأسلحة النارية والقنابل اليدوية... وأن الرعب يتملك القوات الغازية من الإقدام على تلك الخطوة... ومن هنا فالهزيمة محتمة... والانسحاب الأمريكي هو الحل الوحيد للخروج من هذه الورطة!!!

وعندما فوجئنا بوصول القوات الأمريكية مطار بغداد واختراقها للمطار وسيطرتها على بعض أجزائه ثم سيطرتها الكاملة عليه... وجدنا في المقابل نفياً رسمياً قاطعاً من القيادة العراقية وأعلن وزير الإعلام العراقي سعيد الصحاف أن القوات الغازية طردت من المطار بعد أن حاصرتها القوات العراقية وكبدتها خسائر فادحة... وظل الصحاف ينفى والقيادة الأمريكية الوسطى تؤكد الاستيلاء على المطار... وخرجت علينا نخبة ممتازة من المعلقين العسكريين يتفننون في وصف الأحداث الدائرة على أرض المطار ويشرحون الصعاب التي تواجه القوات الأمريكية... وينكر بعضهم استيلاء القوات الأمريكية على المطار... ويؤيد البعض الآخر ما قاله الصحاف من طرد القوات الأمريكية من المطار ومحصلة هذا الهراء سقوط الجماهير العربية في أوهام التصدي الجاد لقوى العدوان... ومداعبة أحلامهم في الانتصار على الجيوش الغازية... تلك السياسة الإعلامية التي انتهجتها أجهزة الإعلام العربية بوجه خاص في تغطية حرب العراق الثالثة... وانتقاء

المحللين والمعلقين العسكريين الذين يجيدون النفاق للجماهير العربية أو الذين يجهلون فنون الحرب الحديثة... تلك السياسة هي المسئولة عن مواصلة تغييب الشارع العربي... واحتقار وعي وإدراك الإنسان العربي وفي النهاية خدمة أهداف الولايات المتحدة في تعمية الرأي العام العربي والدولي حتى تحقق أهدافها من هذه الحملة العسكرية الضارية!!!

صدام والصدمة

ليس لغزاً أن يعدنا صدام بالنصر ثم يختفي فجأة مع وزرائه رضباطه وأهل بيته ؟!! وليس غريباً أن يعلن الصحاف انتصار الجيوش الصدامية على القوات الأمريكية حتى بعد دخولها بغداد... ثم يختفي فجأة... ويختفي اسمه أيضاً من قائمة المطلوب القبض عليهم من أعوان صدام حسين!!!

لقد اعتاد عالمنا العربي على هذه الألغاز والغرائب منذ أحقاب طويلة... وعاش أسطورة القاهر والظافر والناصر... وقصص الهزائم التي تتحول إلى انتصارات والنكبات التي تنتهي إلى نكسات... وكان البطل المغوار "صحافيين" كثار ركبوا إعلامنا العربي لأحقاب طويلة... وربما يعود الوعي إلى عالمنا العربي بعد هذه الأحداث... وربما أمكن الآن وبعد أكثر من نصف قرن تحديد الرؤية الصحيحة والتقييم الصحيح لتصرفات حكامنا... وسياسات الولايات المتحدة تجاهنا.

أقول ربما لأن العتمة قاتلة ورغم انكشاف المستور فمازالت فرق التضليل تعمل ليل نهار لتدويخنا وتتويهنا عن الصورة الحقيقية للأحداث... وموقعنا من القوى الكبرى التي تتحرك حولنا... وتخترق أسوارنا!!!

وهناك تساؤلات كثيرة؟!! هل نحن مع صدام أم ضد صدام؟! الذين مع صدام هم بالضرورة ضد التدخل الأمريكي في العراق... ولكن الذين ضد صدام ليسوا بالضرورة مؤيدين للتدخل الأمريكي في العراق؟!

الحكومة الأمريكية بحربها ضد العراق تبحث عن مصالح شعبها فأين الحكومات العربية التي تبحث عن مصالح شعوبنا؟!

إن كانت هذه الحكومات تظهر غضبها من تدخل الأمريكيين في العراق... وتبدى جزعها من انهيار دفاعات صدام.. وتعلن خجلها من نهب مدن العراق ومعاناة شعب العراق فلماذا ساعدت صدام ودعمته طيلة أكثر من ثلاثين عاماً من حكمه ؟! لماذا أيدته وباركته في ضرب إيران ثم غزو الكويت ثم في إبادة شعبه في جنوب وشمال العراق؟!

لقد جر صدام على شعب العراق والشعوب العربية الكثير من الويلات... والكثير من الكوارث القومية طيلة هذه الحقبة الطويلة من حكمه... ولم نعرف حاكماً عربياً واحداً وقف في طريقه... ولا منظمة عربية تمكنت من صده... فقد كان الرجل طليق اليد واللسان يصول ويجول في مقادير العالم العربي... ويبيع ويشترى في شعبه... فقد طاله الإلهام الإلهي حتى صار في النهاية من أولياء الله الصالحين تقبل الجماهير يديه... وتتمنى منه الرضا والقبول... ونسيت الجماهير في غمرة الإعلام المحموم أن صدام بدأ حكمه رافعاً راية البعث الاشتراكي... راكعاً أمام شخص ميشيل عفلق نبي البعث العربي المرسل من تخوم

الشام... سعيداً بلقب الرفيق الذي التصق باسمه في كل المحافل الرسمية!!

هذا الماضي التليد في اعتناق الاشتراكية التقدمية الثورية... لم يمنع الرئيس صدام من التحول المفاجئ إلى الإسلام... ومن الحديث بلسان القرآن والسنة... ومن البدء بالبسملة في خطبه وتصريحاته... وكلما ضاقت الحلقات حول نظامه بسبب فشل غزواته وشطحاته كلما أمعن في التمسح بالإسلام واستغرق في ذكر الله!!!

ورغم كل التعتيم الإعلامي من طرف ومن آخر فقد كانت المعركة بين صدام وبوش محسومة من البداية... ولكن الجهل والتجهيل الذي ساد الساحة الإعلامية أدى إلى مخادعة الشارع العربي... وإيهامه بقدرة الجيوش الصدامية على سحق القوات الأمريكية على أرض العراق!! وعندما انهارت فجأة الدفاعات العراقية ودخلت الجيوش الأمريكية بغداد... واختفى من الوجود صدام حسين ووزراؤه وقادة جيوشه تفجرت ثورة الغضب الممزوجة بالمرارة والدهشة... وعم الجماهير العربية شعور بالخيبة والخزي وهم يرون آلاف القتلى من العراقيين ويتابعون مشاهد السلب والنهب الذي تعرضت له معظم المدن العراقية من أبناء العراق أنفسهم!! بينما الدول العربية والجامعة العربية عاجزون عن أن يفعلوا شيئاً لصد هذا البلاء!!! كان من المفروض أن تكون الصورة معروفة من البداية... وأن تؤدى وسائل الإعلام العربية على الأقل واجبها بعناية... وألا تجرى وراء العاطفة... وأن تضع في الميزان قدرة الأطراف الحقيقية... ولكنها سارت في اتجاه التهوين من

شأن بوش... والتعظيم من شأن صدام... وكان وزير الإعلام العراقي هو النجم الساطع في كل وسائل الإعلام العربية وحتى آخر اللحظات!! رغم أنه يكذب... ويخترع الانتصارات الوهمية من بنات أفكاره... وكان واضحاً للكثيرين أنه مقطوع الصلة بالمعارك الدائرة... على الأقل قبل يومين من سقوط بغداد في أيدي الأمريكيين!!!

الآن وقد وقعت الواقعة وانتهت الحرب أو كادت... ما الذي يمكن أن نتدبره ونفعله كشعوب عربية ؟!

إن الولايات المتحدة تطرح نواياها على لسان رئيسها... وتؤكد بأنها لا تستهدف احتلال العراق... وإن ما تنشده من حربها هو تحرير العراق من قبضة صدام حسين... وهذا كلام جديد لم نعتده من قبل من الإدارة الأمريكية فسوابقها في هذا الميدان كبيرة... ومخلفاتها من النظم الحاكمة مازالت قائمة... ولا يستطيع أحد أن يراهن على حسن نواياها وصدق عزمها على إقامة ديمقراطية حقيقية في العراق... تضمن حرية الشعب العراقي ورفاهيته... وتمكنه من تدارك ما فاته من تدمير وتبذير لموارده وإمكانياته ولعل الأحوط أن تبدأ النخبة العربية فوراً في الدعوة إلى التغيير والتطوير... فالنظم السياسية العربية متكاسلة وعاجزة عن الحركة الصحيحة إلى الأمام... ولابد أن يعود الحكم للشعوب بعد هذه الغيبة الطويلة لإرادتها... وكفانا ما لحق عالمنا العربي من تسيد الفرد... وانكماش الأحزاب والقوى السياسية واستقالة النخبة عن أداء واجبها في التصدي للعمل العام وفي هذه المرحلة الدقيقة من تاريخنا... فمحنة العراق بكل تداعيها الإقليمية والدولية

تقدم أفضل برهان على ضرورة التحرك نحو الإصلاحات السياسية المطلوبة.

وحتى تكون النخبة العربية أمام الأحداث الجارية لا وراءها... لابد من تلاحم الصفوف على مستوى العالم العربي كاملاً لخلق تيار عربي عام يدعوا إلى هذا الإصلاح الكبير ويعمل على تحقيقه... ولا نعتقد أن معارضة الأقلية الحاكمة... وروافدها الممتدة في أجهزة الإعلام يمكن أن توقف هذا التيار إن بدأ بداية صحيحة... ومسئولية الأحزاب كبيرة في أن تعد فوراً لهذه البداية!!!

هل وصلت الرسالة

"الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله"

صدق الله العظيم

الحمد لله فقد تغيرت لغة الخطاب الأمريكي... وأصبح في غمضة عين يشع نورا ورحمة... وخرج علينا وزير الدفاع الأمريكي يوم السابع من أبريل بكلمات مواساة يعزى فيها الشعب الأمريكي في العسكريين الذين قتلوا دفاعاً عن الحرية.. ويعد بأعظم هدية تقدمها الولايات المتحدة للشعب العراقي... وهى الحرية التي سينعم بها بعد إزاحة نظام صدام حسين!!! واسترسل وزير الدفاع الأمريكي في وصف المشاعر النبيلة التي يتحلى بها الشعب الأمريكي... وإصراره على إنقاذ العراق من قبضة صدام حسين... وحرصه الدائم على عدم المساس بالمدنيين!!! ومن هنا عمد الجيش الأمريكي على تجنب المواقع المدنية قدر الإمكان... وعدم المساس بالأماكن المقدسة.. والسعي إلى نجدة الجرحى من المدنيين وتأمين إمداد المدن بالماء والغذاء والدواء!!!

ولن نصدق أو نكذب أقوال وزير الدفاع الأمريكي... ولن نعلق على ادعاءاته ولا وعوده... ولكننا نضع أمامها التاريخ الطويل لسياسات الولايات المتحدة في العالم العربي... والأخطاء القاتلة التي

أدت إليها تلك السياسات طيلة العقود الخمسة الماضية... فمنذ متى تهتم الولايات المتحدة بالشعوب العربية ؟! ومنذ متى تحرص على تحريرها من الطغاة والمستبدين ؟! إن مقابلة هذا التاريخ الأسود بكلمات الوزير ووعوده الخلابة... تجعل تصديق وعوده أمراً مستحيلاً... فمن الذي فرض نظام صدام حسين على رقاب العراقيين طيلة أكثر من ثلاثين سنة ؟! ومن الذي سانده ودعمه في حربه ضد إيران ؟! ومن الذي أوحى إليه عام ١٩٩٠ بغزو الكويت؟! ثم من الذي تركه يلعق جراحه وينشب أنيابه في الشعب العراقي بعد طرده من الكويت ؟!

ثم من الذي غدر بالشيعة العراقيين عندما هبوا بالثورة ضد صدام حسين ؟! ألم تعدهم الولايات المتحدة بمساندتهم في ثورتهم؟! ثم تخلت عنهم فجأة فكانت مذبحة الشيعة التي سقط فيها آلاف الشهداء على أيدي جنود صدام... وما جرى على الشيعة... جرى بصورة أخرى على الأكراد الذين لم يجدوا أي مساندة من الولايات المتحدة طيلة كفاحهم ضد دكتاتورية صدام وتطلعهم إلى الاستقلال... فلم تمد الإدارة الأمريكية يد العون الجاد إلى القادة الأكراد وكان موقفها متأرجحا ولم تستقر على قرار حاسم إلا عندما قررت غزو العراق والتخلص من صدام حسين فقد بدأت في تقديم العون العسكري والمادي لأكراد الشمال... في مقابل التخلص من الجماعات الإسلامية الكردية التي اتهمتها بالإرهاب والتعاون مع تنظيم القاعدة الذي يقوده أسامة بن لادن؟! وكذلك فتح جبهة شمالية ضد صدام حسين تكون

نواتها القوات الكردية التي جرى تدريبها على أيدي العسكريين الأمريكيين!!!

وليس هذا فقط فالتاريخ الأمريكي القريب لا يعرف للولايات المتحدة مواقف دفاع حقيقي عن الديمقراطية في عالمنا العربي... وإن عرف تحركا محدوداً ومتواضعا لمناصرة حقوق الإنسان في الدول العربية... ولكنه ظل في هذا الإطار الضيق لا يتعداه إلى نظم الحكم الاستبدادية... وسلوكها السياسي المناهض تماما لأبسط مبادئ الديمقراطية...

لقد أعدم معمر القذافي عشرات المعارضين السياسيين بلا محاكمة... وارتكب جرائم إرهابية ضد خصومه في الخارج... واستبد بشعبه حتى فرت النخبة من أبناء ليبيا لتعيش في المنفى خارج الوطن... وظل القذافي الطفل المدلل للولايات المتحدة إلى أن انقلب عليها وبدأ يخرج عن النص وأخذ يضرب مصالح الولايات المتحدة في المنطقة... فانقلبت عليه الإدارة الأمريكية... وحاولت القضاء عليه... ثم فرضت عليه حصاراً دوليا... ولم تتوقف حتى أدانت بعض رجاله في محاكمة دولية بسبب تفجير طائره أمريكية فوق مدينة لوكيربي...

ولن أسترسل في سرد مهازل الولايات المتحدة في المنطقة العربية... ولكن يكفي في تبريرها لمساندة النظم الديكتاتورية ادعائها أن الشعوب العربية لم تنضج بعد لتطبيق الديمقراطية!!! وأنه لا حل لحكم شعوبها سوى بالأسلوب الدكتاتوري وهذه فرية معروفه للتهرب من مسؤولية مساندة النظم الديكتاتورية من أجل المصالح الأمريكية.. والدليل أن

الولايات المتحدة تدعى اليوم أنها بصدد تحرير الشعب العراقي وإقرار نظام سياسي ديمقراطي على أرضه... فهل نضج الشعب العراقي فجأة.. وشب عن الطوق.. وأصبح صالحا للحكم الديمقراطي أم أن مصالح الولايات المتحدة لم تعد تتفق مع دكتاتورية صدام حسين... وأن الوقت قد حان لاستبدال نظام صدام بنظام جديد يتفق مع هذه المصالح ؟!

إن الأيام القادمة كفيلة بإبراز النوايا الحقيقية للإدارة الأمريكية إذ لا يمكن بعد هذا التاريخ الطويل من دعم الديكتاتورية ومساندتها أن تثق الشعوب العربية في مصداقية الولايات المتحدة.. اللهم إلا إذا تأكدت هذه المصداقية بأفعال واقعية تثبت حسن نواياها... وإرادتها الحقيقية في تحرير الشعب العراقي من نير الاستبداد... وتمكينه من صياغة نظام ديمقراطي على أرضه!!!

ترى هل وصلتنا الرسالة ؟! وهل وعينا الدرس المفجع في العراق لنسرع فوراً وبتلقائيتنا الذاتية في إعادة بناء نظامنا السياسي على أسس ديمقراطية ؟!!

حزب أم عصابة

لا أعرف ولا يعرف الكثيرون كيف امتزج البعث العربي بالاشتراكية ثم بالشيوعية... ليصبح شعارا تركبه الدكتاتوريات العربية إلى أهدافها... وتصنع منه غذاء يومياً للجماهير في حياة أفضل!!! ولكنني أعرف يقينيا أن بعض المفتونين بالفكر الغربي التواقين إلى القيادة والريادة قد اجتهدوا في ترجمة المدارس الاشتراكية إلى لغتنا العربية بعد أن اعتنقوا مبادئها وروجوا لها في بلادنا منذ الأربعينيات من القرن الماضي... وكان من مشاهير هؤلاء أنطون سعادة وميشيل عفلق وصلاح البيطار وغيرهم من أبناء الشام وقد سرى هذا المزيج من الفكر القومي العربي والفكر الاشتراكي الثوري في جموع غفيرة من الجماهير العربية واستولى بقوة على عقولها وقلوبها... وساعد على هذا الانتشار موجات القمع السلطوي التي كان يمارسها حكام الشام بالتعاون مع قوى الاستعمار الفرنسي والبريطاني وإرادة التحرر والانفتاح التي كانت تؤجج مشاعر الشعوب العربية... وكان خلو الساحة من أي نظريات فلسفيه أو سياسية من العوامل الهامة التي ساعدت على انتشار الفكر البعثي العربي الاشتراكي وتمركزه في أحزاب سياسية في سورية والعراق ولبنان ثم تمكنه بعد ذلك في قفزات

انقلابية على الحكم في العراق وسوريه على امتداد عقود أربعة من القرن الماضي وخلال هذه العقود الأربعة عانى الشعبين السوري والعراقي ألوانا من العذاب التي لم تذقها شعوب من قبل وجرت دماء هذين الشعبين تحت شعار تحقيق الوحدة الشاملة... وإبادة الدولة العبرية... ولكن الوحدة لم تتحقق بل حلت محلها الفرقة والتناحر بين قوى البعث وبين معظم الدول العربية... بل وتناطح البعثان السوري والعراقي وتخاصمت الدولتان البعثيتان خصومة كبرى بلغت حد الاقتتال والتصفية الجسدية لقادة الفكر البعثي وفر ميشيل عفلق إلى بغداد بينما قتل صلاح البيطار في مكتبه ببيروت!!! وبدلا من الانقضاض على إسرائيل انقض البعثان على شعبيهما... قتلا وتنكيلا في حمص وحماه وكربلاء والنجف وشمال العراق... وكانت المذابح الجماعية تدور تحت سمع وبصر العالم أجمع... فقد قتل البعثيون العلويون آلاف السنة... بينما نجح الرفيق صدام في إبادة عشرات الآلاف من الشيعة والأكراد ولم نسمع أيامها أي احتجاج أو استنكار واحد... لا من الولايات المتحدة... ولا من أوروبا ولا من أي حاكم عربي!!!

تحت وطأة هذين الحاكمين فرت الملايين من أبناء الشعبين إلى الخارج... وعاشت في المنفى انتظاراً ليوم عودة تتحرر فيه البلاد من طغيان البعثيين... ماذا حققت وماذا تحقق هذه النظم البعثية ؟! لقد سقط أحدهم بغزو خارجي بعدما دمر الأخضر واليابس... وأضاع موارد الشعب العراقي وثرواته في مغامرات خائبة... وأوقع الظلم بالطوائف والفئات الدينية... ولم يعدل حتى مع أهل بيته فأوغل فيهم

تقتيلا وتشريدا... وأقام لنفسه الشخوص والتماثيل الضخمة وهو مزال حيا يرزق... ولبس العمامة والقلنسوة ولقب بالرفيق والإمام.... وفعل بشعبه كل البدع التي يعجز القلم عن وصفها... ولم يحترم ميثاقا ولا عهدا... وحتى هؤلاء الذين ساندوه وسايروه في غوايته لم يسلموا من أذاه... حتى الأسرى الكويتيون استرقهم وآذاهم وساقهم إلى سجون العراق... لم يرحم ضعفهم... ولم يحترم كرامتهم وهم أسرى مدنيون في حرب ظالمة... فأباد منهم من أباد... وغيب الباقين في زنازين تحت الأرض!!! هذه المخازي والمساخر التي ظل يفرزها حزب البعث العراقي كانت تختفي دائما تحت غطاء إعلامي براق تنفق الدولة عليه مئات الملايين من الدينارات سنويا.

وكانت كالعادة شعارات الوحدة والحرية والعدالة والرخاء والمجد تغطى كل شبر من أرض العراق... في المدارس والمعاهد والإدارات والمتاجر والنوادي الخ الخ... ولكن الواقع المرير الذي عاشه الشعب العراقي تحت استبداد حزب البعث كان أقوى من كل دعاية إعلامية... فقد كان الأنين يتعالى خلال سنوات صدام الأخيرة ورغم كل الأكاذيب والخدع التي أراد بها البعث العراقي احاطة زعيمه بهالة من البطولة والقدرة على الصمود... وإبهام الرأي العام العربي بأنة الأمل والرجاء الذي ينتظره العالم العربي للخلاص من الهيمنة الأمريكية والاستعمار الاستيطاني الإسرائيلي!!!

وهذه الأوهام التي زرعها بعث صدام طيلة أحقاب عديدة... أثمرت في النهاية أعنف صدمة عند الرأي العام العربي عندما سقط نظام صدام

خلال أسابيع قليلة... بعدما أشبع الشعوب العربية كلاما عن قدرته الفائقة في التصدي للغزو الأمريكي بحرسه الجمهوري المغوار وفدائيوه الميامين الذين اختفوا فجأة بعد سقوط بغداد ولم نر لهم أثراً!!!

الرفيق المؤمن

لا أحد يشك في سطوة الإعلام وتسلطه على عقول الناس... ولكن أمضى الأسلحة الإعلامية وأشدها تأثيرا في عقول الجماهير هو سلاح الإعلام العربي والمصري بوجه خاص!!!

وكان لثوار يوليو الفضل الأول في تأسيس إمبراطورية الإعلام الموجه التي وضعت مباشرة في خدمة الحاكم... وفى تغطية التصرفات والأخطاء التي يرتكبها... وفى تبرير الهزائم والانتكاسات التي يصنعها... وكان صوت العرب أول لبنة في هذا البناء الإعلامي الضخم الذي تنامى بعد ذلك... وانتشرت نماذجه في دول عربيه عديدة خاصة في دول البعثين السوري والعراقي!! وفى حرب العراق كما في كل الحروب التي خاضتها مصر... لعب الإعلام المبرمج أدواراً هائلة في توجيه الرأي العام المصري والعربي وهل ننسي أن هذا الإعلام ظل يحجب هزيمة يونيو عن الجماهير العربية خمسة أيام كاملة كان يتحدث خلالها عن الانتصارات التي حققها والهزائم التي ألحقها بالعدو.. وفي الوقت الذي كان الإعلام العالمي كله يبث وقائع الهزيمة... ومذبحة الجيش المصري في عرض سيناء كان صوت العرب يردد الأناشيد الحماسية ويذيع على الناس البطولات الوهمية... وكان

زئير الأستاذ أحمد سعيد يدوى في الأذان مهللا مكبرا بينما كانت طائراتنا قد تحطمت صبيحة الخامس من يونيو وكانت جيوشنا تتراجع في سرعة إلى غرب قناة السويس!! وليس هذا فحسب فالإعلام المصري هو مبدع الأكاذيب ومنظر الفلسفات حول الصمود والتحدي وهو الذي أشاع بقوة مصطلح النكسة ليخفى الوصف الفعلي لنكبة الجيش المصري في سيناء!!! والإعلام المصري أيضا هو صانع الغيبوبة الكبرى التي تمرغ فيها الشعب المصري...و التي تقوم في أصلها على إلهاء الشعب بالمسليات والتفاهات ابتداء بالمسلسلات والفوازير وانتهاء بالكرويات والفكاهات... فضلا عن تعمد المواصلة الإذاعية والتلفزيونية في بعض المحطات والقنوات.. إلى ساعات متأخرة من الليل حتى تنشغل الجماهير بهذه المواد الإعلامية الهابطة... ولا تجد وقتا للتفكير أو المقارنة بين ما يطرحه الإعلام الخارجي وما يقدمه الإعلام المصري من أخبار وتعليقات.

وعندما تقدمت تكنولوجيا الاتصالات واخترقت كل أرجاء الكرة الأرضية... وأصبح استقبال القنوات الخارجية ممكنا... بدأت عروش الإعلام العربي تهتز بشدة خاصة بعد انتشار "الدش" وظهور أجيال جديدة من الأجهزة التليفزيونية القادرة على الاستقبال بدون دش خارجي... والاتجاه إلى طرحها في الأسواق العالمية بأسعار رخيصة... وقد سببت هذه الطفرة التكنولوجية في عالم الاتصالات الدولية قلقا شديدا للمسئولين عن الإعلام في كافة الدول العربية خاصة في مصر حيث توجد أضخم وسائل إعلامية في العالم العربي كله... فقد سخرت الدولة منذ سنوات عديدة جانبا هاما من قدرتها المالية لدعم الإعلام

المصري الحكومي وتطويره.. وصدرت قوانين عده تمنح اتحاد الإذاعة والتليفزيون الاستقلال المالي عن دولاب الدولة الوظيفي... وتمنح اتحاد الإذاعة والتليفزيون حق تأسيس الشركات الإعلامية أو المشاركة في تأسيسها... وباختصار فإن هذه القوانين تمنح المرونة الكاملة لاتحاد الإذاعة والتليفزيون في أن يستخدم موارده إلى جانب موارد الدولة في توسيع نشاطه... وتطوير أداءه.. وقد أمكن لاتحاد الإذاعة والتليفزيون بفضل هذه المجموعة من القوانين أن يطلق قمرين فضائيين خلال السنوات الخمس الأخيرة وأن يؤسس أكبر مدينة للإنتاج الإعلامي في الشرق الأوسط!!! ورغم ضخامة الوسائل... وضخامة الإنتاج فقد ظلت معظم المضامين الإعلامية محكومة بمنظومة الحكم الشمولي بحيث تتصدر أخبار رئيس الدولة الهام منها وغير الهام كافة نشرات الأخبار المحلية والدولية... وبحيث تغطى الدعاية للمنجزات الحقيقية والوهمية أكبر مساحة إعلامية على كافة القنوات والموجات... وبحيث يحذف تماما من كافة الأنباء والبرامج آراء وأفكار المعارضة الجادة سواء كانت أحزاب أم أفراد... وأن يستقطب فقط إلى البرامج الإذاعية والتليفزيونية أعوان النظام الحاكم وأصدقاؤه والمتملقون لأفعاله من الباحثين عن منفعة أو غنيمة... وهكذا يمضى بنا الإعلام المصري ومعه بطبيعة الحال معظم الإعلام العربي... خاصة في الدول التي تتلون نظمها الشمولية تلون الحرباء فمرة هي شيوعية وأخرى هي اشتراكية... وثالثة هي قومية ورابعة هي إسلامية تحكم بنص القرآن والسنة!!!

والمتابع للإعلام العراقي تنتابه الدهشة على الانقلاب المفاجئ في التوجه الأيديولوجي للنظام الحاكم.. فبعدما كان النظام يلتحف بالعبث الشيوعي.. ثم بالعبث الاشتراكي... وكان قادته ابتداء بالرئيس صدام يلقبون رسميا بالرفاق... وكان الخطاب السياسي يعج بالمصطلحات اللينينية والستالينية... ويؤكد على انتصار البروليتاريا واندحار الرأسمالية والإمبريالية!!! بعد كل ذلك تغير كل شيء... و تحولت المفاهيم والمصطلحات إلى نصوص القرآن الكريم والسنة المحمدية وأصبح الإسلام هو لغة الخطاب السياسي الرئيسية... وصار القادة لا يستحون من نطق البسملة في مقدمات كلماتهم.. ولا يخجلون من رفع شعار الجهاد والاستشهاد في سبيل الله!! ولا يتوانون مع اشتداد وطأة الحرب عن توجيه النداء إلى العالم الإسلامي بنصرة العراق ضد القوات الغازية!! وكأن ما اقترفوه ضد الشيعة المسلمين في العراق من مجازر.. وما ارتكبوه ضد أكراد العراق المسلمين من مذابح كيميائية قد سقط تماما من وعي وحس الجماهير العربية.. ولكننا في النهاية أمام عقلية ومدرسة في السلوك ما زالت تعيش وتحكم وتتحكم في عالمنا العربي.. وتجد مع الأسف حتى اليوم من يصدقها عندما تتلون وتكذب كما تتنفس على عباد الله.. آناء الليل وأطراف النهار!!

التمويه

من أهم محاور الإستراتيجية الأمريكية في ضرب العراق المحور الإعلامي إذ على هذا المحور ترتكز عناصر الحرب النفسية التي تعتبر جزءاً لا يتجزأ من الحرب العسكرية بل ربما أشد منها أهمية وخطراً... وقد ركز الأمريكيون على التضليل الإعلامي كأساس راسخ لهذه الحرب بهدف حماية جيوشهم من ناحية وتخدير الرأي العام العربي حتى لا يثور ضد السلوك العسكري للولايات المتحدة أثناء العمليات من ناحية أخرى... وجرى تعاون وثيق بين الإدارة الأمريكية ووكالات الأنباء الدولية وأجهزة الإعلام العربية... وقد برع في إتقان هذا الأسلوب الإعلام العربي كله مع تفاوت محدود في تفاصيل الخبر وعلو النبرة... ولكن الطابع المميز لهذا الإعلام خاصة التلفزيون هو النعرة الوطنية العالية في سرد أحداث هذه الحرب وتلوين وقائعها باللون الذي يسترضي الجماهير... وقد واكبه في ذلك بشكل آخر الإعلام الأمريكي الذي ظل طوال العمليات يتحدث عن المشاكل التي تواجه القوات الأمريكية والمقاومة الشديدة التي تلقاها على أيدي الصداميين والفدائيين والحرس الجمهوري... مما أعطى انطباعاً للرأي العام العربي أن هناك مقاومة جادة واحتمالات انتصار ساحق على القوات الأمريكية... وعلى وقع هذا الإعلام المتواصل في كافة الإذاعات

والقنوات العربية رقص الشعب العربي... وانفرجت أساريره بالسرور والحبور لسقوط العدو الأمريكي في الفخ الذي أعده البعث العراقي بقيادة بطل أم المعارك الرئيس صدام حسين!!!

والمتابعة اليومية لأجهزة الإعلام العربي... من إذاعة وتليفزيون وصحف لا يخطئ النظر أنها تسقط يومياً في وعي الإنسان العربي مئات الأخبار والأساطير التي تحمل الكثير من معاني النضال الثوري التقدمي... والفداء الإسلامي البطولي الذي يلقن الأعداء دروساً لن ينسوها في محاولاتهم غزو العراق!!!

وقد سقط في هذا المستنقع عن عمد أو غير عمد عشرات الشخصيات من المعلقين السياسيين والعسكريين... وواجهتنا قنوات التليفزيون العربي المنتشرة في الفضائيات العديدة بسيل هائل من المعلومات والتحقيقات تدور كلها حول إقناع الجماهير العربية بمعلومات وبيانات تدور كلها حول الانتصارات التي حققتها فصائل المقاومة العراقية الباسلة ضد قوى العدوان وعاشت الجماهير العربية تتحلق التلفزيون بكل قنواته لمتابعة العمليات الفدائية الباهرة... والضربات العسكرية المظفرة... وتصفق إعجاباً بعملية فدائية هنا وهجمة عسكرية هناك... وتتسلى يوميا على أنباء الانتصارات التي حققتها وترقص على نشوة الفرحة التي غمرتها بهذه الأنباء السعيدة...

والهدف من كل هذا الإعلام الموجه هو تخدير الشعوب العربية الثائرة ضد الغزو الأمريكي للعراق... والتي لم تكف عن التظاهر والاحتجاج ضد تدخل الولايات المتحدة لإسقاط نظام حكم صدام

حسين!!! هذا الحبور والسرور الذي أرادته القوى المعتدية والذي وجد إقبالاً في العالم العربي هو جزء من المخدر السياسي الكبير الذي تفننت في صنعه الإدارة الأمريكية... وهو لا يستهدف أكثر من تزويد الجماهير العربية الثائرة ضد الولايات المتحدة بجرعة أمل كبيرة في نصر ساحق على قوى العدوان الأمريكي... وفي عمق هذه الإستراتيجية الإعلامية الخبيثة تكمن التجارب القديمة لممارسات الولايات المتحدة وحليفتها إسرائيل... في العالم العربي... فقد تعلمت الإدارة الأمريكية وربما من عتاة الصهيونية وجهابذة إسرائيل... كيفية التعامل الإعلامي مع الشعوب العربية فقد هزمت مصر عام ١٩٦٧ في صبيحة يوم الخامس من يونيو بضربة دمرت قوتها الجوية الضاربة... ولم يعلم الشعب المصري بالهزيمة إلا بعد خمسة أيام عندما وقف جمال عبد الناصر في التاسع من يونيو ١٩٦٧ ليؤكد للشعب أن جيشه قد هزم و ليعتذر عن فعلته ويستقيل من منصبه!!! وهذا ما يفعله الأمريكيون الآن وهو إيهام الشعوب العربية بقدرتها على هزيمة الجيوش الأمريكية والبريطانية... وإحياء الأمل عندها في المقاومة والانتصار بسيل من الأخبار التافهة أو الكاذبة حتى تتمكن القوات الأمريكية والبريطانية من القضاء على نظام صدام حسين... وإخضاع العراق كله لسيطرتها الفعلية... و هنا... وهنا فقط سوف يستيقظ الشعب العربي على الحقيقة الكاملة وسوف يفاجأ... باحتلال الولايات المتحدة لكل العراق من جنوبه إلى شماله... وسوف يتأكد أن المقاومة التي أبداها نظام صدام حسين والبعث العراقي أضغاث أحلام لا ترقى إلى مستوى الواقع الفعلي الذي يؤكد أن الحروب قد تغيرت نوعيتها... وأن

التلاحم الجسدي بحروب المدن أو غيرها لم يعد موجوداً في العلوم العسكرية إلا من باب التاريخ... وليس ما نقول من قبيل الإعجاب أو التأييد لما تمارسه الولايات المتحدة من سياسات... وما تنتهجه من مخططات في عالمنا العربي... ولكن ما نرجوه وما نأمله من هذه الكتابات هو إيقاظ الذهن العربي على حقائق التحول النوعي الكبير في فنون الحرب وإستراتيجيتها... وبروز ما يسمى اصطلاحاً الحرب من البعد أي ضرب العدو وقهره بغير مقابلته مباشرة بأسلحة تقليدية... وذلك من خلال الصواريخ الذكية... التي تضربه من بعد دون أن يتمكن من مواجهتها بأسلحته التقليدية العتيقة!!!

الفصل الثالث

بعد الصدمة

"والآن و بعد سقوط العراق بدأ الكلام عن الإعمار وإعادة صياغة الدولة العراقية على أسس الديمقراطية، ولكن بدأ في نفس الوقت التحرش بدول الجوار سورية ولبنان وإيران... وبدأ التفاوض على خارطة الطريق!!!

ولكن مع كل هذه البدايات... هل بدأ الوعي يأخذ طريقه إلى جماهيرنا العريضة على الرغم من أن بلاءنا واضح... وأن قضيتنا الأساسية أشد وضوحاً!!!"

لغز صدام

أنقل للقارئ ما انطبع في الذهن من صور الحرب في العراق فقد اختفى صدام حسين فجأة في اليوم الثامن عشر للقتال وسقطت بغداد والعراق بالكامل في أيدي القوات الأمريكية ولم نعرف إن كان الرجل قد قتل عند القصف الأمريكي أو أنه قد هرب بماله وعياله ووزرائه ومستشاريه!!

وقف المواطن العربي مذهولاً أمام الوقع المفاجئ لهذا الحدث وتدور عشرات التساؤلات : هل هي صفقة بين صدام والولايات المتحدة تمت قبل الغزو الأمريكي وأن كل ما كان يجرى على أرض العراق من معارك لم يكن سوى سيناريو سينمائي متفق عليه بين صدام والأمريكيين أم أن وطأة القتال واقتراب الأمريكيين من بغداد قد دفع صدام حسين إلى الاستسلام والانسحاب بهدوء إلى بلد آخر كروسيا مثلاً!!! هذا الغموض وتلك الدهشة التي انتابت الرأي العام العربي والدولي لا يمكن أن نجد تفسيرها سوى في التضليل الإعلامي والكذب المنظم الذي اعترى الساحة العربية طيلة الخمسين سنة الماضية فكما تعلقت قلوب العرب بعبد الناصر في الستينات والسبعينات تعلقت قلوب العرب أيضاً بصدام حسين في الثمانينات والتسعينات وكان

السبب أن كليهما ظهر في صورة البطل المنقذ لفلسطين والحرر للشعوب العربية من آلامها وقد انتهى عبد الناصر بهزيمة نكراء مع كل تداعياتها المعروفة، واليوم وبنفس الأسلوب المخالف تنتهي أسطورة البطل المنقذ مؤسس الحرس الجمهوري الشهير وجماعة فدائي صدام وصاحب أشهر صواريخ عربية في التاريخ وإن كانت صواريخ صدام تفوق صواريخ عبد الناصر القاهر والظافر والناصر في أنها استخدمت في الحرب فعلا وإن كانت لم تحقق أهدافها، وما انتاب الشعوب العربية من خيبة أمل في هذا البطل المنقذ إنما يعكس أسوأ مناخ إعلامي وسياسي يعيشه العالم العربي وهو مناخ موبوء بأكاذيب إعلامية وخدع سياسية وهدفه الأكبر مواصلة تضليل الرأي العام وتغييبه عن الحقائق فقد كان غريباً أن يخرج الإعلام العربي كله بزفة تلقى في روع الإنسان العربي أن النصر سيكون لصدام ضد أقوى قوة في العالم وأن الأمريكيين قد سقطوا في الفخ الذي نصبته لهم الجيوش الصدامية وشاهدنا على امتداد ثلاثة أسابيع أسوأ تحاليل صحفية وأغبى تعليقات عسكرية جرت معظمها مع الأسف مع محللين عسكريين عرب منهم من خاض حروبا فعلية في الخليج وفي سيناء أما الإعلام الأمريكي فقد عمد طيلة مراحل الحرب إلى احتكار الخبر والصورة وقصرها فقط على قناة "سي إن إن" وكان شحيحاً في الإفراج عن الأخبار والصور المتعلقة بالمعارك، وعن هذا الإعلام استشف المحللون العرب أن الأمريكيين قد تورطوا في أول أيام القتال... وأنهم قد تسرعوا وأنهم قد أخطأوا وأنهم وأنهم... وصار الكلام والتعليق على طول خطوط الإمداد الأمريكية والصعوبات التي تلقاها القوات الزاحفة بسبب طول هذه الخطوط ثم انتقل الكلام إلى

المقاومة العنيفة التي تركها الأمريكيون خلفهم في المدن التي طوقوها من الخارج ولم يستطيعوا الدخول إليها وأن هذه المدن قد تشكل خناجر في ظهر القوات الأمريكية المتقدمة نحو بغداد ثم خاطر معظمهم بالقول إن الجيش الأمريكي سوف يلقى مقاومة عنيفة في اختراق الخطوط الدفاعية حول بغداد وأن صدام قد أعد للأمريكيين ما استطاع من عدة ومن "رباط الخيل" ثم جرت أوصاف لاستحكامات صدام حول بغداد كانت معظمها خاطئة كالقول بالحفر المليئة بالمتفجرات والنفط المعد لاستقبال الجيوش الزاحفة ومواقع المدفعية الحصينة والتي لا تؤثر فيها أقوى القنابل والصواريخ المجهزة برؤوس جرثومية وكيماوية إلى آخر تلك الأوصاف التي كان لها في جملتها أبلغ الأثر في إسعاد الرأى العام العربي وبعث التفاؤل في نفوس الجماهير العربية وإقناعها بأن جيوش صدام على وشك الانتصار لا محالة!!! هكذا تابعت الجماهير العربية صور الحرب وتطور العمليات العسكرية يوماً بيوم وهكذا انطبع في الأذهان تصور مخالف كثيراً للواقع الذي يجرى على أرض المعارك تماماً كهذا التصور الذي عايشته الجماهير العربية قبل هزيمة يونيو وبالتحديد خلال العشرين يوماً السابقة على الهزيمة!!!

فقد كان رنين صوت أحمد سعيد وأناشيد صوت العرب وتعليقات الخبراء العسكريين والمدنيين تملأ الآفاق وتمتع الإنسان المصري والعربي بنشوة الانتصار القريب على إسرائيل واسترداد أرض فلسطين وكان الكلام عن أقوى قوة ضاربة في شرق البحر الأبيض المتوسط التي تملكها جيوش عبد الناصر والتسلح المتقدم في فنون الحرب الذي تمثله صواريخ القاهر والظافر والناصر كان كل ذلك يؤكد للإنسان العربي

الغارق في صرخات الإعلام المصري والمانشيتات النارية للصحف أن النصر قادم لا محالة وأن الخلاص من إسرائيل وشيك ، حتى إذا ما اندلعت حرب الخامس من يونيو دُمر الطيران المصري بالكامل في قواعده وأصبحت جيوشنا المنتشرة في عرض سيناء بغير تغطية جوية ورغم ذلك ظل الإعلام المصري على حاله يُبشر الشعوب العربية بالانتصار الساحق وعلى قوى العدوان ويعلن خلال الأيام الخمسة الأولى أن الجيش المصري قد أسقط للعدو مائتين وخمسين طائرة وأن قواتنا المسلحة تجرى تطويراً للقتال وأنها انتقلت إلى خط الدفاع الثاني ثم الثالث وأنها تلقن العدو دروساً لن ينساها وكانت الحقيقة أن الطيران المصري قد خرج من المعركة منذ الساعات الأولى لصبيحة الخامس من يونيو وأن جيوشنا قد تلقت على أثر ذلك أمراً بالانسحاب من سيناء وأنها تركت معداتها وانسحبت إلى شرق القناة في فوضى شاملة مكنت العدو من اصطيادها في عرض الصحراء ولم يكتشف الشعب المصري الحقيقة إلا في اليوم الخامس، يوم التاسع من يونيو عندما خرج عبد الناصر على موجات الإذاعة والتلفزيون ليقول للناس أن جيشنا قد هُزم وأن سيناء قد احتُلت وأنه لا يوجد جندي واحد بين السويس والقاهرة وأنه سيستقيل من منصبه ويترك سلطات الرئاسة لنائبه زكريا محيي الدين وكانت صدمة شديدة على الشعب المصري فجّر في الجماهير ثورة غضب عارمة وهنا كان الإعداد لخديعة أخرى فقد تجمعت عناصر الاتحاد الاشتراكي المجلوبة من كافة أقاليم مصر في القاهرة بتدبير وإعداد على صبري لمطالبة عبد الناصر بالبقاء في الحكم.

واستجاب عبد الناصر فى اليوم التالى... وظلت الأسئلة معلقة: لماذا هزمنا وكيف هزمنا؟ ولم يستطع أحد الإجابة فقد كان الشعار المرفوع لا صوت يعلو على صوت المعركة!!

وانتهت المعركة بنجاح العبور وانتصار أكتوبر ولكن ظل الصمت مضروبا حول أسباب الهزيمة وظل الشعار مرفوعا رغم انتهاء المعركة!!

مسيلمة الكذاب

هكذا أجيالنا الهابطة والصاعدة غارقة في بحار من الأكاذيب المنظمة.. تفرضها أجهزة تدربت على إفراغ العقول من كل مفيد ومثمر... وملئها بكل خبيث تافه.. والسهر على تحويل الحكام إلى آلهة لا تغيب رؤيتهم عن أعين المحكومين... ففي كل طلعة شمس صورة ولقطة وخبر يشير إلى مجيد الأعمال التي يصنعها الحكام من أجل شعوبهم... وقد انتقلت هذه العادة الخبيثة من النظم الشمولية لتشمل كافة الدول العربية... ولم يقتصر الأمر على الأخبار والصور.. بل انتقل إلى الفنون والآداب وأصبح الشعر والغناء والموسيقى مكرساً لخدمة النظم الحاكمة.. كما سخرت الأفلام والمسرحيات للإشادة بأفعالهم وتحقير خصومهم... بتصوير الماضي في شكل كابوس مزعج.. والحاضر في شكل جنة فيحاء.. ولا عجب إذن أن يخرج المواطن العربي من هذا الإعلام المبرمج بحصيلة عظيمة من المفاهيم الخاطئة... وأن ترتسم في ذهنه خيالات مجد غير قائم... وأوهام عظمة غير موجودة وأن تذهب به القناعة إلى حد فقدان الإحساس بالموازين والمقاييس التي تحدد ثقل أمته والمسافات التي تفصلها عن الأمم الأخرى في هذا العالم فقد ظلت أجيال بأكملها تؤمن بتفوق مصر العسكري...

وبقدرة الدول العربية الاشتراكية التقدمية على إنهاء الوجود الإسرائيلي بجرة قلم... ثم كانت المفاجأة التي لم يفطن إليها أحد في هزيمة ١٩٦٧!!!

ثم جاء نبي جديد خرج كما قالوا من ركام الهزيمة ليبشر العرب بالنصر المبين... وكان رفضه للهزيمة... واستنكاره لاتفاقية كامب ديفيد وقيادته حملة عزل مصر عن الريادة العربية... وطردها من الجامعة العربية... وقطع صلة الدول العربية بها... كانت كل هذه الخطى المظفرة التي قادها نبي القومية العربية الجديد... خليفة عبد الناصر... وبديله على درب القومية والحرية والوحدة القائد الهمام صدام حسين التكريتي!!!

وتعلقت الشعوب العربية بهذا البطل الرافض للهزيمة... المستنكر للاستسلام... العامل على إعادة بناء الوحدة العربية من المحيط إلى الخليج تحت راية البعث الاشتراكي الوحدوي الذي أمسك بزمام المبادرة في العراق وسورية...

كان العرب يتوقعون أن يصرف هذا الجهد الثوري الوحدوي التقدمي العظيم في بناء صرح الاقتصاد العربي... وفي تحقيق الوحدة العربية... وفي التصدي لإسرائيل... كانت الأماني العربية عريضة في هذا النبي الجديد... الذي وصفه البعض بالمعجزة!!! والآخرون بالفولاذ الذي لا يلين!!! و إذا بهذا الفولاذ يقاطع البعث السوري... ثم يتفجر العداء الذي وصل إلى حد التنابذ والتناحر والتآمر بين البلدين العراق وسورية!!! ثم يصدر فجأة جيشه إلى إيران قائلاً إن

الطريق إلى الوحدة العربية يمر بإيران تماماً كما قال عبد الناصر عندما صدر جيشه إلى اليمن "أن الطريق إلى فلسطين يمر باليمن"!!! وضاعت دماء كثيرة في اليمن... أما فلسطين فقد كان لها رب يحميها من تغول الصهيونية واستبدادها بالفلسطينيين... لقد كان الإعلام العربي كله مشاركاً ومباركاً لما فعله صدام حسين بإيران... وكانت دول عربية كثيرة تمد صدام بكل أشكال العون إما خوفاً أو نفاقاً فقد كان الرجل بطاشاً يخافه بعض الحكام العرب... ويتقى شره بعضهم الآخر!!!

أما السوريون فقد ناصبوه العداء بل وتحالفوا مع أعدائه الإيرانيين... وقاتلوه بالتآمر وبالكلمة حتى الثمالة!!! ولكن هذا القتال المرير والذي ظل محتدما لسنوات طويلة انقلب فجأة إلى محبة ومودة.. ومحاولات تقارب وتعاون عندما زمجرت الولايات المتحدة وكشرت عن أنيابها بعد أحداث ١١ سبتمبر... وبدأت تعد العدة لافتراس العراق... فقد استشعر النظام السوري الخطر المحدق أكثر من غيره من النظم... وأحس بأنه معنى بكل ما وجهته الإدارة الأمريكية "لصدام حسين" من اتهامات... كإبادة المعارضين وإيواء الإرهابيين وحيازة أسلحة الدمار الشامل والاستبداد بالحكم... كل هذه الاتهامات التي كالتها الولايات المتحدة للنظام العراقي وجدت أصداء قوية عند النظام السوري... وشهدت ساحة الاستخبارات اتصالات تحتية بين البعثين المتخاصمين السوري والعراقي واشتد التواصل واللقاء بين بعض مسئولي البلدين قبيل غزو العراق بأسابيع طويلة كما أكدت بعض التعليقات الصحفية والإخبارية!!! وانقلب النظام السوري من الهجوم إلى الدفاع عن نظام صدام بأسلوب غير مباشر... وتصدرت سورية

قائمة المنكرين لوجود أسلحة دمار شامل في العراق... ثم كانت على رأس الدول العربية المعارضة لشن الحرب على العراق!!!

وكان حدس النظام السوري صحيحاً فلم تكد تنتهي العمليات العسكرية في العراق بل وأثناءها حتى بدأت الإدارة الأمريكية تصرح بالتهديدات وتكيل الاتهامات إلى الحكومة السورية متهمة إياها أولاً بتهريب بعض معدات الرؤية الليلية للعراق والسماح بتسلل المتطوعين العرب عبر الحدود السورية، وإيواء المسئولين العراقيين الذين هربوا من العراق بعد بدء العمليات العسكرية... ولم تكد تنتهي الحرب... حتى كانت سورية تمتلك أسلحة دمار شامل!!! فقد أعلنت الإدارة الأمريكية هذا الاتهام الخطير... وهو نفس الاتهام الذي وجه لصدام حسين... وكان يحمل دلالة خاصة التصقت بأذهان الرأي العام... وهو أن سورية مرشحة للغزو العسكري بعد العراق... وأن النظام السوري لابد وأن يرحل عن السلطة كما رحل نظام صدام وإلا تدخلت الإدارة الأمريكية لإسقاطه بالقوة المسلحة!!!

وإلى هنا أتوقف... لأنتقل بالقارئ العربي إلى لب القضية... قضية العتمة الشديدة التي فرضتها النظم الشمولية على المنطقة العربية طيلة نصف قرن!!! والتي بدأت تتبدد بفعل التقدم التكنولوجي المذهل الذي اخترق الحدود واختصر المسافات... وفتح للعقل العربي آفاقاً جديدة قد تكون بداية لإيقاظ وعيه... وترتيب فكره... من أجل مستقبل جديد تعلو فيه الحقيقة وتغيب فيه الأكاذيب!!!

مدرسة التضليل

من طبائع الاستبداد الاهتمام الكامل بتمجيد الحاكم... والانكباب المطلق على تعظيم أقواله وأفعاله!!! وتلك إحدى سنن الاستبداد وسلاحه الأمضى في ركوب عقول المحكومين والاستيلاء على قلوبهم... وقد فطن حكام يوليو قبل غيرهم من طغاة العالم العربي إلى أهمية الدعاية السياسية والإعلام الموجه وضرورتها الأساسية في دعم الحاكم وتوطيد سلطانه!!!

وتتحدد رسالة الإعلام في ظل هذه النظم في تبرير أقوال الحكام وأفعالهم... وتجميل صورتهم أمام الجماهير... بل وإحاطتهم في النهاية بهالة من العبقرية والقدسية التي تبلغ أحياناً حد التأليه والعبادة!!!

وكانت أولى مدارس هذا الإعلام المبرمج وأشدها قوة ونفوذاً في مصر... فقد عنيت الثورة أكبر عناية بدعم أجهزة الإعلام المسموعة والمكتوبة ثم بعد ذلك المرئية بكل الوسائل المادية المتاحة وأفسحت لرجالها مكاناً مرموقاً بين أجهزة الحكم المختلفة!!! وكان من أبرز رموز هذا الإعلام وفرسانه رجال عاهدوا الحاكم على نصرته ظالماً أو مظلوماً... منتصراً أو مهزوماً... وتبرير قراراته وسياساته وتقديمها للرأي العام في الصورة التي لا يأتيها الباطل من أمامها ولا من

خلفها!!! وقد ذهب الغي بهذه الفئة من الإعلاميين إلى خلق مدرسة كاملة من التلامذة والمريدين الذين أثمروا فيما بعد نباتاً سماً في كل وسائل إعلامنا!!! وأصبحوا يشكلون اليوم بؤراً فاعلة في الصحف والإذاعة والتلفزيون... وصاروا على استعداد كامل لبيع أقلامهم لمن يدفع سواء عندنا أو عند غيرنا من الحكام الذين أدمنوا الدعاية السياسية على الطريقة المصرية... وعرفوا قيمة الإعلام المصري في تغطية الهزائم... والانتكاسات... وتحويلها إلى أمجاد وانتصارات... واستخدام أقوى الأبواق الإعلامية وأكثرها انتشاراً وشهرة في تلوين الحقائق وصبغها باللون الذي يرضي أذواق الجماهير ويفجر حناجرها بالهتاف ويحرك أيديها بالتصفيق!!!

ومن خصائص هذا الإعلام تفوقه المطلق في استخدام الفنون والآداب في تمجيد الحكام... والإشادة بأفضالهم... وكانت الضحية الأولى لهذا التوجه الإعلامي فنون الموسيقى والغناء والمسرح والسينما... التي طوعت كلها لحساب الحكام... وأصبحت في خدمة نزواتهم وأهوائهم... ومن أبرز ما قدمه الإعلام المصري في هذا السياق التغني بالرئيس جمال عبد الناصر في كل مناسبة وحتى بغير مناسبة... والتهليل والتطبيل لقراراته وشطحاته... وكان الفنانون ابتداء بكبارهم يساقون سوقاً في أعياد الثورة ليقدموا الأناشيد الحماسية... والأغاني الوطنية التي تردد اسم عبد الناصر وتتفنن في الإشادة بأفعاله وأعماله... وما زالت أغاني أم كلثوم وعبد الوهاب وعبد الحليم وفريد الأطرش وغيرهم تدوي في آذان الناس رغم رحيل عبد الناصر ورحيل هؤلاء الفنانين... فقد مكنت هذه الأغاني لعرش

عبد الناصر في طول العالم العربي وعرضه... وأنزلته في قلوب الملايين منزلة الأنبياء والمرسلين... بينما كان العالم العربي بطوله وعرضه لا يدرى شيئاً عن حقيقة النظام الذي أسسه عبد الناصر... ولا يعي شيئاً عن حجم الخسائر القومية التي خلفها!!!

أما السينما التي جرى تأميمها... وتسخيرها لحساب الحاكم... فقد برعت في تأليف الأفلام المهاجمة للعهد السابق... المركزة على ظلمه واستبداده... وأمعنت السينما المؤممة في وصف ملوك مصر ورموزها الناصعة بكل الأوصاف الرذيلة وإلحاق أسوأ العيوب بهؤلاء الذين قادوا المسيرة الوطنية ابتداء بمصطفى كامل... وانتهاء بمصطفى النحاس...

فقط ربما هزيمة يونيو هي التي أيقظت الوعي العربي المغيب بين صراحة حسنين هيكل وصرخات أحمد سعيد... ودفعته إلى إعادة النظر في مصداقية هذا الإعلام الموجه... فقد كانت قسوة الهزيمة أقوى من أن تحتمل... وكانت مواجهتها الإعلامية شديدة الاستحالة...

ومع ذلك... خرج علينا من يقول بالنكسة بدلاً من الهزيمة... ومن يصور الكارثة بأنها مجرد حدث عابر سوف يجرى التغلب عليه... بل وانقض إعلامنا بعد أيام من الهزيمة على عقل المواطن العربي يبرر الحدث الكبير بأنه خسارة أرض... وليس خسارة إرادة... وأن السبب المباشر للهزيمة ليس خللاً في القيادة السياسية... ولا القيادة العسكرية... ولكنه مؤامرة كبرى حيكت خيوطها بين إسرائيل والولايات المتحدة... أما تصرفات قيادتنا في الإعداد للحرب...

وتحريك القوات وسحب البوليس الدولي وإغلاق مضايق العقبة... والتهديد الواضح الفاضح بإبادة إسرائيل... كل ذلك لم يكن من أخطاء القيادة... ولم يكن من صنعها... وكأن إسرائيل قد باغتت الجيش المصري بلا مقدمات... ولا أسباب... بينما الواقع يقول وبكل الوضوح أن عبد الناصر صاحب القيادة السياسية قد حدد بنفسه كما كان يقول دائماً زمان ومكان المعركة... وأدخل جيشنا في مصيدة سيناء بلا إعداد ولا تدريب... وخلق كل الأسباب التي تذرعت بها إسرائيل للعدوان على مصر واكتساح الجيش المصري في سيناء!!!

المؤسف أننا نحن المصريين لم نتعلم من هذا الدرس القاتل... ولم يتعلم أيضاً إخوتنا العرب... بل خرجنا من هزيمة يونيو بمقولات ساذجة تدور كلها حول فكر المؤامرة... وخيانة الزعيم ومسئولية المشير وغدر الصديق السوفيتي!!!

ولكن هذه الكارثة الضخمة التي بنيت عليها كل التداعيات التي كبلت العالم العربي وشلت من مسيرته ابتداء بكامب ديفيد وانتهاء بالمعاهدة الأردنية الإسرائيلية... والتسويات الفلسطينية هذه الكارثة الهائلة لم يخرج منها العرب بشيء!!! ومازال الوعي العربي في أغلبيته يعيش صرخات أحمد سعيد وصراحات حسنين هيكل... وتضليل الإعلام الرسمي الموجه الذي غيب تماماً دروس الهزيمة... وضيع تماماً فرص التعرف على أسبابها ودوافعها... وترك الإنسان العربي في بحر هائل من التساؤلات الحائرة التي لا يستطيع إلى اليوم أن يستخلص

الإجابة الصحيحة: لماذا هزمنا وكيف هزمنا وما خسائرنا في هذه الهزيمة؟!!

لا شيء من ذلك فقد عبر الإعلام المصري فوق الهزيمة عبور الكرام... وقفز فوق كارثة كبرى كان يمكن أن يوقظ لهيبها وعي الإنسان المصري والعربي... لو أنه أعاد النظر في حساباته.. وتوجهاته... لينطلق من جديد انطلاقاً صحيحاً في الطريق الصحيح... ولكن للأسف وللأسف الشديد ظل التعتيم مضروباً على هزيمة يونيو وظلت ملفاتها الرسمية وشهودها من عسكريين ومدنيين بعيدين عن دائرة الضوء إلا في النادر من الحالات ومن خلال إرهاصات أو مذكرات وذكريات لا ترقى قيمتها إلى ثمن الورق الذي كتبت عليه!!!

وويح مصر والعرب من هذا التضليل الإعلامي فقد دفعنا ثمنه اليوم مرة أخرى في كارثة صدام حسين... فقد كان الرجل نموذجاً جديداً لهذا اللون من كبار المستبدين الذين لونوا أنفسهم بألوان خادعة تجذب الجماهير وتداعب أحلامهم في القوة والعزة والنفوذ... وها هو يسقط خلال أسابيع ويختفي هو ونظامه العنتري الذي وعد العرب بتدمير إسرائيل... وتحقيق الحلم العربي الكبير في الحرية والوحدة من المحيط إلى الخليج... وظنت الأغلبية الكاسحة من الجماهير العربية... أنها أمام بطل واعد جاء ليعيد أمجاد صلاح الدين وينقذ الأرض المغتصبة في فلسطين... ويحيي الأمل العربي في حياة أفضل...

هكذا كان تفكير الأغلبية المحبطة المكدودة من جماهيرنا العربية كلما طالعتها صورة الرئيس صدام أو اسمه أو كلماته... لقد صنعت الدعاية

والإعلام من الرجل أسطورة يتغنى بها العالم... وتخشاها الولايات المتحدة... وترتعد لها أوروبا... وقد أسهمت المناورات الإسرائيلية والسياسات الإعلامية الأمريكية في إبراز صورة صدام حسين في إطار ضخم أكبر بكثير من حجم الرجل... وتعمدت اصطياد أقواله وسلوكياته للتدليل على مدى قدرته وقوته في تهديد البشرية بالفناء... من خلال أسلحة الدمار الشامل والصواريخ الموجهة التي يصنعها في سرية تامة... ولم يكن الرجل في واقع الأمر يملك هذا ولا ذاك... بل كان كما قال بعض المقربين منه يتلذذ من خوف الناس من بطشه... وكان يستمتع بالدعاية الأمريكية عندما تصفه بالرجل الخطر الذي لا يسعى إلا إلى إنتاج أسلحة الدمار الشامل من أجل إبادة إسرائيل والسيطرة على العالم العربي!!!

ثقافة التعتيم

للثقافة دور حاسم في تشكيل الوعي السياسي!!! ولكن يبدو أن ثقافتنا العربية وما أصابها من وهن واضمحلال ... قد أرهفت جداً الحس السياسي للجماهير العربية... ووصلت إلى درجة عظيمة من رقة الشعور... وعمق الأحاسيس والولع الشديد بالزعيم المحبوب من أول نظرة!!! وكنت أتوقع أن تكون صدمة العراق بداية مراجعة شاملة لأفكارنا ومعتقداتنا العامة التي سادت خلال النصف الأخير من القرن الماضي... حتى فوجئت بالكثيرين من كبار المفكرين والكتّاب وأصحاب الأقلام العريضة يتكلمون بالعاطفة لا بالعقل... ويجادلون بالنفاق لا بالمنطق... وهم يعرضون ويستعرضون ضرب العراق... وسقوط بغداد... واختفاء صدام!!!

فقد تظاهر معظمهم بالصدمة والفجيعة لهزيمة صدام وكأنما كانوا يتوقعون انتصاره... وأراد بعضهم في إصرار عجيب قطع الصلة بين هزيمة يونيو وهزيمة صدام... بدعوى اختلاف ظروف الزمان والمكان!!! وأجهش بعضهم بالبكاء في لقاء عام وهو يقول حاشا لله أن نشبه صدام بعبد الناصر!!! وهكذا امتلأت الساحة السياسية والإعلامية بأصحاب العواطف الجياشة والوطنية الإقليمية التي ترفض

المقارنة والقياس والتحليل الموضوعي لصدمتين مدويتين في تاريخ الأمة العربية!!!

هؤلاء وأضرابهم ممن اعتاد الإعلام العربي أن يقدم لهم الميكروفون والشاشة والصحيفة ليقولوا ما يتراءى لهم من آراء وتعليقات هؤلاء هم أعداء الحقيقة وقتلتها... الذين لم يتعلموا... ولا يريدون أن يتعلموا جديداً بعد أن تعلموا قديماً ما فرض عليهم في ساحات الاتحاد الاشتراكي والبعث الاشتراكي فتلقفوه وابتلعوه واجتروه اجتراراً ليرتزقوا منه مناصباً ومنافعاً ومزايا مقابل خدمة السلاطين وأتباعهم... هؤلاء ما زالت بقاياهم تلوث أجيالاً بأكملها وتحجب عنها الرؤية الصحيحة للصدمة العربية الثانية والتي تفتح باباً على الصدمة العربية الأولى في الخامس من يونيو وتتيح لكل ذي بصر وبصيرة أن يسترجع ويراجع ويقيم الفواجع الكبرى التي نزلت بنا... ويحدد أسبابها ودوافعها رغم كل التضليل الرسمي الذي يغطي الساحة العربية... ورغم كل التشويش الذي يقوده هؤلاء الكتّاب والمستكتبين لحجب حقائق الصدمة الأولى... وقطع الصلة العضوية التي تربطها بالصدمة الثانية!!!

وكفى صراخاً وعويلاً على المقارنة بين زعامة عبد الناصر وزعامة صدام... فلا زعامة هنا ولا زعامة هناك... إنما هي زعامة الاستبداد... والتجهيل... الذي صنعته ميكروفونات الإعلام وشاشات التليفزيون الحكومي على امتداد الوطن العربي كله... فكما كانت صرخات أحمد سعيد وتصريحات الأستاذ هيكل تقيم الدنيا ولا تقعدها... كذلك

كانت تصريحات محمد سعيد الصحاف وزير إعلام صدام... وكما كان اعتماد الشعوب العربية على القاهر والظافر والناصر في إحراز النصر على إسرائيل... كان اعتماد الشعوب العربية على حرس صدام الجمهوري وصواريخه العابرة في قهر الجيوش الأمريكية!!!

وكان الخبراء والعقلاء يقهقهون عندما يشاهدون جموعاً من العراقيين يرقصون ببنادق الكلاشينكوف كلما سقطت طائرة أو دمرت دبابة أمريكية!!! ولم يحاول معلق عربي أن يقول للناس أن الحرب قد تغيرت... وأن السيف والمقلاع لم يعد من أدوات الحرب الحديثة... وأن البندقية والدبابة لا تجدي نفعاً مع غياب الطيران العراقي وفقدان نظم الحرب الإلكترونية واستخدام الصواريخ الذكية... فكل ذلك يجعل الحرب من البعد... ويمكن العدو من إصابة أهدافه من مسافات بعيدة... ويجنبه بالتالي القتال المباشر ويقلل خسائره البشرية إلى حد بعيد!!!

لم يقل أحد ذلك... ولا شيء من ذلك لا قبل الحرب ولا أثنائها ولا بعدها ... ولو كان الإعلام العربي أو العالمي حراً في هذه الظروف لأمكن الشرح والتحليل... ولاستطاع المواطن العربي أن يفهم لماذا خبّ صدام دباباته ومدفعيته في المدن وداخل الجوامع والمدارس والمستشفيات ولماذا لم تستطع قواته التصدي للغزو الأمريكي فوق أرض مكشوفة... ولماذا لم يدخل الجيش الأمريكي إلى المدن ولماذا ولماذا... ولكن آثر إعلامنا الاستمرار في النهج القديم في أغلب الحالات... آثر كتابنا ومفكرونا أن يداعبوا عواطف الشعوب العربية

وأن يعبثوا بأحلامها... أو على الأقل أن يسكنوا فواجعها حتى تنام على الصدمة من جديد... فلا تعودها اليقظة أبداً إلا على صدمة ثالثة!!!

الهدامون يتكلمون

تكلم أخيراً محمد الدوري سفير العراق في الأمم المتحدة... فاق الدوري محمد سعيد الصحاف في براعة الكلمة وحسن الأداء... وإذا لم تكن تعرف أن محمد الدوري هو عضو حزب البعث العربي الاشتراكي العراقي... وممثل صدام حسين في أكبر هيئة دولية وهي الأمم المتحدة... والمدافع عن سياسته وسلوكه ومواقفه بقوة واقتدار طيلة الأعوام الأخيرة السابقة على سقوطه... وإذا لم تكن قد رأيت د. محمد الدوري وهو يبكي بحرارة على شاشات التلفزيون فور سقوط النظام العراقي واختفاء صدام حسين ويطلق قولته الشهيرة... لقد انتهت اللعبة!!! ثم يتنصل من النظام الذي كان يمثله... والذي وضعه في هذا الموقع الرفيع بالأمم المتحدة... وهروبه من سيل الأسئلة التي وجهها إليه الصحفيون... واختفاءه عن الأعين لبضعة أيام في مدينة نيويورك!!!

إذا لم تكن تعلم شيئاً من ذلك ورأيت د. محمد الدوري بعد اختفاء صدام يقف بجرأة يحسد عليها أمام شاشات التلفزيون... وعلى وجه الخصوص في القناة التلفزيونية "العربية" ليتناول مستقبل العراق بعد صدام ويجيب على السؤال تلو السؤال في قوة وفصاحة... لأيقنت

على الفور أنك أمام زعيم سياسي معارض لنظام الحكم الصدامي في العراق أو من هؤلاء الذين يعيشون منذ سنوات طويلة في المنفى... أو ذاقوا مرارة السجون الرهيبة التي أسسها النظام البعثي العراقي لخصومه السياسيين!!!

صحيح أن الرجل قال: دعونا من الماضي... وتعالوا نبنى المستقبل!!! وبعبارة واحدة غسل الرجل يديه من كل الأقذار التي شارك في صنعها... وانطلق يجيب في صراحة تامة على الأسئلة والاستفسارات التي انهالت عليه من كل أنحاء الأرض فإذا بنا نكتشف أن الرجل ديمقراطي كبير... ومؤمن بالحرية وحقوق الإنسان... ويرفض الظلم والاستبداد... ويطالب بحق الشعب العراقي في تقرير مصيره... من خلال دستور ديمقراطي... وانتخابات حرة نزيهة تتنافس فيها الأحزاب والقوى السياسية بلا تمييز بسبب الدين أو العرق!!! ويؤكد د.محمد الدوري أن هذه المطالب الديمقراطية لابد أن تجرى تحت إشراف الولايات المتحدة التي عليها أن تغادر العراق فور تحقيقها... أما قبل ذلك فهي مسئولة عن الشعب العراقي... وعليها أن ترعاه وأن توفر له الأمن والطعام والدواء... وأن تسحب جيوشها من العراق بمجرد إقرار دستور جديد وتشكيل حكومة عراقية ديمقراطية بناء على هذا الدستور!!!

وانتهى سفير صدام في الولايات المتحدة إلى رجل آخر... انتهى إلى شخصية مخالفة لتلك التي عرفناها قبل سقوط صدام... صحيح لم يغرق الرجل في الديماجوجية الرخيصة كغيره من نواب صدام ووزرائه... ولم

يذهب إلى حد ما قاله وما فعله محمد سعيد الصحاف وزير إعلام صدام... فالصحاف لا يعلى عليه في الكذب والتضليل... ولكن سلوكه المعتدل في الخطاب الذي يفرضه منصبه... ودفاعه عن أسطورة عدم امتلاك العراق أسلحة دمار شامل وتصديه لمشكلات فرق التفتيش الدولية... والتقارير التي تقدمها لمجلس الأمن إلخ... كل هذه الصولات والجولات التي دارت في أروقة الأمم المتحدة قبل الهجوم الأمريكي على العراق... تدل على أن الرجل كان بعثياً... وقيادياً... وأنه شارك في المسئولية... وارتبط بكافة الأفعال والأقوال التي ارتكبها نظام صدام خاصة خلال السنوات الأخيرة من حكمه!!!

ولكن الجديد القديم في هذا الطراز من الرجال هو القدرة على تغيير الهوية والتحول من النقيض إلى النقيض وقد استخدم الرجل مواهبه على الفور بعد أيام قليلة من سقوط صدام... ودخل إلى حلبة النقاش الحاد حول مستقبل العراق... بل وأصبح نجماً يومياً في قناة "عربية" ينتظره الجمهور كل ليلة ليمطروه بالأسئلة ويتسابق المعارضون العراقيون لمحاورته أو لاستجوابه أو لانتقاده.

والمثير للدهشة هو كيفية وصول هذا البعثي الصدامي إلى شاشات التلفزيون العربية بهذه السرعة وهذا الحضور؟!!

هل هي المنافسة الإعلامية التي دفعت ببعض القنوات العربية إلى استقطاب شخصيات من هذا النوع!!! أم هي المناورة السياسية لتي أقحمت د. محمد الدوري على النقاش الدائر حول مستقبل العراق... وذهبت به إلى تخطى الماضي والقفز إلى المستقبل على امتداد حلقات

يومية متصلة يشارك فيها إلى جانب الرجل شخصيات عربية من هنا ومن هناك... ولكن المهم أن يكون النجم اللامع رغم الهجوم والدفاع هو الدكتور الدوري وأن تكون أفكاره ومقترحاته متسقة تماماً مع الأماني الوطنية والقومية... ومتفقة تماماً مع التيار العام الداعي إلى إرساء قواعد الديمقراطية وحقوق الإنسان في عراق المستقبل!!! وهنا نطرح سؤالاً أخلاقيا هو بيت القصيد في كل هذا المقال... هل تسقط المسئولية السياسية عن أعوان الاستبداد بمجرد سقوط النظم التي ناصروها وشاركوا في جرائمها ؟!

وإن كان ذلك فكيف تنهض موازين الثواب والعقاب في مجتمعاتنا ؟! وكيف يستقيم الميزان إذا استطاع القاتل أن يفض يديه من القتل بمجرد الكلام عن الفضيلة... والسارق أن يتنصل من السرقة بمجرد الكلام عن الطهارة ؟!

إن المجتمع الذي يتقبل هذه السلوكيات ويهضمها مجتمع مختل مريض لا يمكن أن ينهض ولا أن يتقدم فنكبة العالم العربي كله في هذه الشخصيات المتلونة المتقلبة التي تأكل على كل الموائد وتضرب على كل الأوتار... ولا تجد الروادع العقابية لكل ما ارتكبته من أخطاء وخطايا بل تجد على العكس القبول والترحيب من كل الأوساط خاصة الأوساط الإعلامية التي تتسابق على استقطابها واستضافتها على شاشات التلفزيون!!!

هناك تفسيرات كثيرة لهذا الحدث الشاذ وإن كان معظمها يعتمد على التخمينات والشائعات منها أن القنوات التلفزيونية العربية تبحث

عن القضايا الجادة والخطيرة والشخصيات المثيرة... فاستضافة محمد الدوري بهذه الصورة القوية في إحدى القنوات العربية هو عمل إعلامي لا يستهدف تلميع الرجل بقدر ما يستهدف تلميع القناة التلفزيونية التي استضافته في حلقات يومية متتابعة... ولكن البعض يصر على تصوير الحدث على أنه تدبير أمريكي لإبراز د. الدوري على المسرح السياسي العراقي من جديد... تمهيداً لدور محدد سوف يلعبه في المستقبل!!!

وأيا كانت الأسباب والدوافع فهذا النوع من الرجال يجب أن يختفي تماماً من حياتنا السياسية فبناء الديمقراطية سواء في العراق أو في مصر أو في أي قطر عربي رهين برجال من طراز أخر... رجال مبادئ لا يحيدون عنها... رجال أمناء لا يخادعون... رجال أطهار لا يفسدون... ونظام صدام وكل نظام مشابه لا يفرز رجالاً من هذا النوع... بل هو صانع نوع نمطي من المداهنين المتلونين الذين تعرفهم كافة النظم الاستبدادية من هولاكو وحتى هتلر وموسوليني وستالين!!!

ولا أخال أن بناء المستقبل ممكن بغير إزالة ركام الماضي... وأول الركام هؤلاء المخربين الذين شاركوا فى هدم صروح هذه الأمة بمعاول القهر والاستبداد!!!

بين الصدمتين

منيت الأمة العربية عبر تاريخها الحديث بالعديد من العثرات... وإذا كانت مصر الثورة قد تعلمت شيئاً من بعض عثراتها... وخرجت من ساحة المعركة مكتفية باسترداد أراضيها وتوقيع معاهدة صلح مع أعدائها... فإن دولاً ثورية أخرى لم تتعلم شيئاً من مرارة التجارب العربية... بل واصلت مسيرتها التقدمية الوحدوية على نفس الدروب وبانتهاج نفس الأساليب التي قادت مصر إلى هزيمة يونيو وأسقطتها فريسة القروض والمعونات... وألزمتها بدماء جديدة لمقاتلة إسرائيل وعبور القنال... واسترداد سيناء!!! لقد كانت صدمة العرب كبيرة... وكبيرة جداً بهزيمة يونيو... وكذلك كانت صدمة العرب كبيرة بل مهولة بسقوط بغداد وانهيار نظام صدام حسين!!! وفي أقل من أربعة عقود يصاب العرب بهذه الكارثة القومية الجديدة... ليس فقط بسبب المسار الخاطئ الذي انتهجته النظم الثورية الاشتراكية التقدمية في مصر وسورية والعراق وليبيا... ولكن أيضاً بسبب غياب الوعي العربي العام عن رؤية هذا المسار الثوري الخاطئ... وتفهم أسبابه وأبعاده... والتعلم من عثراته وشطحاته... فقد كانت أضخم آلات الإعلام والدعاية تركب رؤوس الناس من المحيط إلى الخليج... ولم تكن تتكلم إلا عن بطولات وأمجاد وعنتريات... ولم تكن النظم غير الثورية وغير

التقدمية بقادرة على مواجهة هذا المد الإعلامي المضلل طيلة السنوات الخمس الماضية... وظلت الريادة الإعلامية معقودة للنظم التقدمية الثورية وحتى وقت قريب عندما بدأ تيار المقاومة ينتشر عبر قنوات إعلامية جديدة... ووسائل صحفية جديدة منها ما ظهر على الساحة بحجة التنوير ومنها ما ظهر بزعم التحرير من العتمة القاتلة التي فرضتها النظم التقدمية الثورية الاشتراكية على عقول الجماهير العربية!!! والمؤسف أن الإعلام الغربي لم يكن أفضل حالاً من الإعلام العربي الثوري التقدمي خاصة أثناء الأزمة الأمريكية العراقية ثم خلال العمليات العسكرية ضد العراق... فقد فرضت الإدارة الأمريكية حظراً على الأنباء عند المنبع... واحتكرت كافة الأخبار والصور المتعلقة بالعمليات العسكرية... ولم تسمح بتسرب سوى القليل من المواد الإعلامية لأجهزة الإعلام ووكالات الأنباء العالمية. لقد كانت الولايات المتحدة تغطي على عملياتها العسكرية في العراق وتضلل بحجب النشر على تجاوزات وأخطاء وجرائم وقعت من القوات الأمريكية أثناء القتال... وعمليات عسكرية تمت ضد المدنيين ممن ادعت القيادة الأمريكية أنهم جنود صدام وفدائيوه... وقد كان هذا التعتيم الإعلامي سبباً في ضياع الحقيقة حول ما حدث في اليوم السابق على احتلال بغداد... فقد جرت عمليات عسكرية جوية وأرضية... وربما مفاوضات ومساومات انتهت باستسلام بغداد على ما يبدو دون قتال حقيقي!!!

ثم جرت عمليات نهب وسلب ضخمة بدأت بقصور صدام ثم الهيئات والوزارات والإدارات الحكومية والعسكرية بينما قامت

القوات الأمريكية بمحاصرة وزارة البترول ومنع الاقتراب منها!!! المهم أن الحقيقة لم تكن حاضرة أمام الجماهير العربية لا قبل العمليات العسكرية ولا أثناءها ولا بعدها... فالرأي العام لا يرى سوى لقطات متناثرة من الحقيقة... ولا يدرك سوى قسطاً تافهاً منها لا يساعد بحال على اكتمال الصورة... وتعميق الوعي بكافة الحقائق التي أحاطت بذلك الحدث الكبير الذي هز العالم العربي... وحرك كوامن الفتنة النائمة في أعراقه ومله ونحله وكشفت مصدر الخلل في معتقداته السياسية والقبلية!!!

ولكن هذه المرة تختلف كثيراً عن سابقتها... فالصدمة الأولى... صدمة هزيمة يونيو... لاحقها الكثير من الأقوال والأفعال في محاولة لإبعاد المسئولية عن صانعيها... وتصوير القيادة السياسية في صورة الضحية التي خانها العسكريون... وتآمر عليها الإسرائيليون... وغدر بها الأمريكيون وظلت هذه القيادة بزعامة عبد الناصر تنفخ في هذا البوق وتوهم الجماهير أن ما حدث مجرد نكسة عابرة سوف ينهض بعدها العرب إلى نصر مبين... ولم يكن هذا النصر الذي وعد به عبد الناصر سوى مجرد الأمل في العودة إلى حدود ما قبل الخامس من يونيو ١٩٦٧!!!

لقد أنهت هزيمة يونيو أسطورة إلقاء إسرائيل في البحر... واستعادة كل فلسطين... بل وتقلصت آمال عبد الناصر بعد عامين من الهزيمة إلى استعادة أرض مصر فقط بعدما وافق قبل وفاته بشهور على مخطط

روجرز للسلام الذي كان في مضمونه أسوأ بكثير من اتفاقية كامب ديفيد!!!

وعندما انتهت الحرب ضد إيران وخرج صدام بجيش نصف مهزوم تفتحت شهيته على الانقلاب كان عليه أن يشغله بنصر سريع فكان قراره التهام الكويت البلد الصغير الآمن الغنى بموارد النفط ولم يجد عند الإدارة الأمريكية مانعاً من ضم الكويت إلى ممتلكاته... وتحقيق انتصار ملموس يعوضه عما فقده من مال ورجال في حربه ضد إيران... ولم يفهم بغباء غير مسبوق أن الإدارة الأمريكية تنصب له فخاً ليسقط فيه ومعه دول الخليج بل والعالم العربي أجمع... ورغم كل التحذيرات فقد سبق السيف العذل... وسقطت الكويت بين أنياب صدام وذاق الشعب الكويتي مرارة وهمجية الاحتلال الصدامى... وتعرضت ثرواته وتراثه لكل ألوان السلب والنهب المنظم الذي لم يشارك فيه سوى جنود صدام وبعثه العربي الاشتراكي!!!

وخرج صدام من الكويت مهزوماً بجيوش أمريكية عربية متحالفة... ليقبع في العراق... وليصب كل غضبه على الشعب العراقي شيعة وسنة وأكراداً... لقد كان صدام حسين أشد إيغالاً في الخطأ من عبد الناصر... وأكثر إمعاناً في الإصرار على ارتكابه إلى درجة يصعب معها تبرئة ساحته من التواطؤ مع الولايات المتحدة من بداية حكمه... وبالقطع منذ حملته العسكرية على إيران... ومحاولة غزوها في حرب طاحنة استمرت أكثر من ثماني سنوات... وكانت الإدارة الأمريكية تسانده في كل خطوة خطاها ضد عدوها اللدود

إيران الخميني... وعندما أوصلته سياسة العناد والمكابرة مع الإدارة الأمريكية إلى طريق مسدود واستشعر القريب والبعيد دنو أجله... طالبوه بضرورة اعتزال الحكم وتسليم السلطة إلى حكومة انتقالية... وبدلاً من أن يستجيب لصوت العقل ويراجع حساباته على ضوء الواقع... انبرى في التحدي والتهديد مضحياً بمصالح شعبه... وأمن نسائه وأطفاله وأخذ يلقي الخطب العصماء... ويطلق التصريحات البلهاء التي تتوعد العدو بالموت والهلاك إذا ما تجاسر واعتدى على أرض الرافدين!!! ولم يسعفه جهله وغروره في أن يقدر وزنه العسكري وقدرته على مواجهة الغزاة... ولم يجرؤ وزراؤه ومستشاروه على أن يطلعوه على حقيقة جيشه... وقدرة حرسه الجمهوري... رغم أن منهم بعض من يفهم شيئاً من فنون الحرب... ويعرف شيئاً عن أصول الحرب من البعد التي لا تنفع معها دبابات الروس... ولا مدفعيتهم... ناهيك عن غيبة الطيران العراقي الذي فتح سماوات العراق أمام ضربات الطيران الأمريكي!!!

لقد كان جمال عبد الناصر حريصاً عند التهديد باستخدام القوة وأحياناً عند الإحساس بالخطر... فقد رأيناه قبل هزيمة يونيو بأيام يتراجع أمام الولايات المتحدة ويعترف بقوتها وقدرتها عندما أوغل في استفزازها وتحديها... ثم رأيناه يحاول سحب جيشه في سرعة عند أول رصاصة تطلقها إسرائيل... أما صدام فقد كان "جلفاً" متهوراً لا يعير التهديدات الأمريكية أي اهتمام... ولا يقيم لتصاعدها أي وزن... فلم يحاور أو يناور في تصريحاته وبياناته قبيل الحرب... بل ظل ثابتاً

على خط واحد... يواجه التحدي بالتهديد والوعيد كأنما يملك أكبر قوة نووية على الأرض!!!

وعندما بدأ القتال... ووجهت الولايات المتحدة أعنف ضرباتها الجوية على بغداد لم يهتز صدام... ولم يجب بل قابل الهجوم الأمريكي بخطبة عصماء وجهها إلى شعبه وجيشه وأمته العربية يطالبهم فيها بالصمود والتصدي... وتهديد العدو بالإبادة والتدمير على أيدي قواته المسلحة وحرسه الجمهوري وفدائييه الأشاوس!!!

هكذا الفارق البعيد بين الموقفين موقف عبد الناصر عام ١٩٦٧ وموقف صدام عام ٢٠٠٣... وإن كانت النتيجة النهائية واحدة وهي صدمة الإنسان العربي في زعاماته... وفي قدراته!!!

بالعلم لا بالقوة

ليست البطولة في استخدام القوة لقهر الشعوب ولا في استنزافها في الحروب والغزوات ولكن البطولة في تعليم الشعوب وتثقيفها واستثمار طاقتها في بناء قواعد الإنتاج.. والتقدم.. ولو أنفق صدام حسين ما أنفقه في حروبه وغزواته على التعليم والبحث العلمي وبناء الصناعة والزراعة في العراق والوطن العربي لأصبح للعرب شأن آخر في هذا العالم... ولصارت بكل قرية عربية جامعة تنشر العلم والمعرفة... ولأصبح للعالم العربي قوة اقتصادية نافذة تفرض وجودها على التكتلات الضخمة التي تتقاسم اليوم مصير هذا الكوكب..

ولكن صدام آثر أن ينفق خمسة تريليونات من الدولارات على حروبه وغزواته!!! مرة ضد إيران وأخرى ضد الكويت.. وثالثة ضد شعبه الذي أعدم منه الآلاف في شمال العراق وجنوبه!!! وجرعه الجوع والحرمان في حصار دولي طويل دام أكثر من عشر سنوات لقد كانت هذه التريليونات كافية جدا لإغناء العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه... ولكن الرئيس صدام وبعثه العراقي أضاعوا خمسة وثلاثين عاما في معارك كلامية وغزوات حربية انتهت دائما بالخسائر والهزائم وكان ولعه الدائم البحث عن موارد القوة من خارج المنطقة العربية فكان

تحالفه مع روسيا وكوريا الشمالية وكان سعيه وراء الصين من أجل امتلاك أسلحة نووية.. وكان كفاحه مع طوب الأرض لصنع وتطوير أسلحة دمار شامل... وكان وراءه في كل هذه المساعي مخابرات العالم الغربي.. ترقب وتتحرك... وتحبط كل محاولاته الساذجة لشراء القوة من الدول الصناعية لتنفيذ مخططاته... ماذا كان يتصور صدام حسين؟! هل كان يتصور قدرته على شراء أسلحة الدمار وإنتاج القنابل النووية بأموال البترول ليضرب بها أعداءه أو من يتوهم أنهم أعداءه من جيرانه العرب والفرس!!! قالوا: لقد أراد الرجل أن يحرق المراحل... وأن يقفز فوق واقع التخلف الذي يعيشه العالم العربي... وأن يدرك ما فات الزعيم جمال عبد الناصر عندما أراد أن يوحد العالم العربي من المحيط إلى الخليج بحد السيف... وأن يرغم العرب جميعا على الرضوخ لمشيئته بالتخويف والإرهاب... ثم يبيد إسرائيل بعد ذلك... وينهي وجودها بالقوة كما فرض وجودها على العرب بالقوة؟!

ولكن الواقع أن صدام حسين سلك نفس الطريق الذي سلكه عبد الناصر... وهو طريق القوة والانقلاب... وهذا الطريق أورد العالم العربي موارد التهلكة وقاده إلى التشرذم والضياع... فطريق الوحدة العربية الحقيقية ليس سوى طريق العلم والمعرفة والتخطيط السليم لخلق تعاون عربي فعال حول التنمية والتقدم... وهذا هو الطريق الصعب الذي تجنبه عبد الناصر ثم صدام في بناء الوحدة العربية فالوحدة لا تبنى من القمة بأحلاف الحكام أو بالانقلابات ضدهم... بل تبنى من القاعدة.. أي من التقارب بين الشعوب العربية في المصالح والتوجهات... والأماني القومية لا تكفي وحدها في بناء وحدة عربية

إذا لم تغذيها وتظاهرها روابط اقتصادية واجتماعية وثقافية قوية بين الشعوب العربية...هذه الروابط لا تقيمها سوى سوق عربية مشتركة تنهض على ممكنات التكامل الاقتصادي بين الدول العربية وهى ممكنات ضخمة لم يجر استغلالها للأسف استغلالاً فعالا حتى اليوم...!! والسبب أن وضعها موضع التنفيذ يقتضى جهداً وصبراً لا يحتمله هذا النوع من النظم الشمولية التي تقوم على القوة وتعتمد عليها في كل شيء.. وتتوهم أن هذا الطريق.. أي طريق القوة والعنف هو الطريق الأسرع والأجدى في بناء الوحدة العربية... وتحقيق العزة العربية وهكذا ضاعت الوحدة العربية وفقها الكرامة العربية!!

فهل يعود إلينا الوعي بالحقيقة البديهية وهي أن القوة في الوحدة وأن الوحدة لا تبنى على أحلاف حكام طغاة... ولا على مؤامرات وانقلابات مسلحة... ولكن الوحدة تبنى على وعى الشعوب العربية بمصالحها المشتركة ومصيرها المشترك... وسعيها من خلال نظم ديمقراطية حقيقية تمثلها إلى بناء الوحدة من القاعدة إلى القمة... ويمكن للجامعة العربية في ضوء هذه الشروط أن تلعب دوراً فاعلاً في الدفع إلى هذا الطريق بالبدء في تأسيس سوق عربية مشتركة... تكون النواة الصلبة لوحدة عربية شاملة في المستقبل المنظور... ولا شك أن الطريق طويل وشاق فلابد أولاً من التمهيد لهذه السوق بإزالة الحواجز الجمركية والقانونية بين الدول العربية... وتوحيد تعريفة النقل بين الدول العربية بكافة صورها وإباحة انتقال الأشخاص والبضائع والأموال بلا عوائق وتأمين الاستثمارات الفردية والمشتركة في كافة الدول العربية... وفتح طرق المواصلات البرية والبحرية والجوية

وإنمائها إلخ... وتلك مهام كبيرة وصعبة ولكن علينا اليوم أن نعمل على تحقيقها إن أردنا حقاً لهذه الأمة مكاناً بارزاً بين الكتل الكبيرة التي تتنازع السيادة في هذا العالم!!!

ويبقى شرط الإمكان فى التحول إلى الديمقراطية فهى المدخل الحقيقى للتنمية والتقدم.

الديمقراطية أولا

أعادت الإدارة الأمريكية بحربها ضد العراق أزهى عصور الحروب الاستعمارية فهذه الحرب على خلاف الحروب التي خاضتها الولايات المتحدة خارج أراضيها حرب مغانم ومكاسب!!!

فقد خسرت الولايات المتحدة كثيراً في حرب كوريا وخسرت أكثر في حرب فيتنام... ولكن حروبها في بلاد العرب كانت دائماً خيراً وبركة لشعبها ودعماً عريضاً لاقتصادها!!!

لقد خرجت الولايات المتحدة من حرب الخليج الأولى بمكاسب عظيمة تتمثل في مبيعات هائلة للذخائر والعتاد... فضلاً عن استثمارات مباشرة وغير مباشرة في قطاع البترول العربي... ثم خرجت الولايات المتحدة من حرب الخليج الثانية بمكاسب أعظم بكثير من حرب الخليج الأولى... فقد مولت هذه الحرب بأموال العرب... ثم دعمت الولايات المتحدة وجودها العسكري في المنطقة العربية... وسيطرت على قسط كبير من بترول العرب!!!

أما في حرب الخليج الثالثة فقد نجحت وحدها ومعها بريطانيا في الفوز بكنـــز البترول العراقي... وفوقه صفقة إعمار العراق بعد هدمه على رأس حليفها القديم صدام حسين!!!

وقد تميزت هذه الحروب الثلاثة بتنشيط ودعم الاقتصاد الأمريكي الذي ازدهرت قطاعاته الإنتاجية بسبب الحرب وتضاعفت استثماراته بسبب الحرب وتدعمت عملته بسبب الحرب!!!

لقد كانت ومازالت الحروب الأمريكية في المنطقة العربية خيراً وبركة للاقتصاد الأمريكي والشعب الأمريكي... ولكنها لم تكن أبداً خيراً وبركة للشعوب العربية... فهذه الشعوب هي التي تدفع الثمن... من دمائها وأقواتها... وكل ما فعلته هذه الحرب الأخيرة هو توحيد كلمة العرب من المحيط إلى الخليج على كراهية أمريكا!!! وشكراً للإدارة الأمريكية على هذه الوحدة العربية الشاملة التي تعتبر في حد ذاتها انتصاراً للإرادة العربية وفتحاً مبيناً لغضبتها وثورتها!!! وشكراً مرة أخرى للإعلام الأمريكي فقد تمكن في أيام قلائل من تعتيم الساحة ولم نعد نرى سوى هزائم أمريكية وانتصارات عربية تذكرنا بالتعتيم الذي فرضه الإعلام المصري على كارثة الخامس من يونيو خمسة أيام متوالية!!!

وعلينا الآن أن نكف عن اجترار الهموم والأحزان... وأن نتعلم شيئاً من دروس هذه الحرب... وأن نفكر جدياً في عراق ما بعد الحرب... ومستقبل العالم العربي على ضوء التداعيات التي سببتها الحرب!!!

والدرس الأول أن نسقط من وعينا أوهام انتصار النملة على الفيل التي صورها بدقة التضليل الإعلامي من طرف ومن آخر.

والدرس الثاني أن نضع في اعتبارنا أن شعب العراق هو الخاسر الأول في هذه الحرب الظالمة... وأن علينا واجب مساعدة هذا الشعب ومساندته بكل ما نملك من قدرة... أما الدرس الثالث فهو القناعة المطلقة بضرورة إعادة النظر في نظمنا السياسية ليعود الحكم للشعوب بدلاً من الدكتاتوريات... ولتعلوا المصالح الوطنية على المصالح الأمريكية...

وانطلاقاً من هذه الدروس لابد من وقفة حازمة للشعوب العربية... ومراجعة جادة لمعتقداتها وتوجهاتها خلال نصف القرن الماضي... فقد برز الإفلاس والفشل والضياع في كافة قضايانا القومية... وتمكنت إسرائيل من أرضنا وأمننا... وتشرد الشعب الفلسطيني تحت سمعنا وبصرنا... ثم كان العبث بمقدراتنا وثروتنا وانتهينا إلى تبعية مهينة تقبض على زمام مصالحنا وتتحكم في صميم أرزاقنا.

والكلام مرة أخرى موجه للنخبة العربية في أحزابنا ونقاباتنا ومؤسساتنا وفي كل موقع من مجتمعاتنا المدنية... فهذه النخبة مطالبة بالتحرك فوراً نحو الإصلاح السياسي... فلم يعد ممكناً استبعاد الشعوب وتحجيمها على النحو الذي نشهده اليوم... وإذا لم تستيقظ النخبة على وقع هذه الخطوب والكوارث وتؤدى دورها الطبيعي... فلن تقوم للعالم العربي قائمة بعد اليوم... ولن يكون لمصر أو غيرها من الدول العربية دور مؤثر في هذا العالم!!!

ولا يجوز أن ننتظر من الإدارة الأمريكية وعوداً بل أفعالاً وسلوكاً تكفر به عن سيئاتها ... وكفانا منها نظماً حاكمة اكتوت شعوبنا

بنارها... وكفاها منا سكوتاً وصبراً على خيانتها للديمقراطية في عالمنا العربي!!!

ولا يجوز الانتظار حتى تنتهي الولايات المتحدة من مهمة إعادة تشكيل الدولة العراقية وبناء نظامها السياسي فهذه المهام سوف تستغرق وقتاً... ولا يمكن بعد خمسة وثلاثين سنة من القهر والتسلط أن تنتظم الأحزاب والقوى السياسية العراقية المستبعدة من الساحة والمنفية في الخارج إلا بعد جهود وتضحيات... فضلاً عن إعادة صياغة كافة مؤسسات الدولة خاصة الجيش والشرطة والقضاء التي تشكلت على هوى النظام الشمولي ودكتاتورية الحزب الواحد... ومن الضروري أن ينطلق الإصلاح السياسي من مصر ومن غيرها من الدول الشمولية فوراً وبلا أدنى إبطاء خاصة وأن كافة الظروف مهيأة لتحقيق الإصلاحات المطلوبة... ومن العيب جداً أن نتباطأ ونتلكأ حتى يفرض علينا إصلاح بالقوة لا نريده ولا نرجوه... ويكفي أننا لم نتعلم من تجارب الماضي القريب... فلا أقل من أن نتعلم شيئاً من كارثة الحرب على العراق... وأن نقتنع في النهاية أن أساس كل البلاء هو غيبة الديمقراطية وتسيد الدكتاتورية على رقاب الشعوب!!!

درس في الديمقراطية

في ضجيج الآراء المتصادمة يعلو صوت على كل الأصوات يرسم طريق العمل لعالم عربي منكوب أعجزه الطغيان عن أي مواجهة صحيحة لتحديات المستقبل!!!

والرجل هو السيد الصادق المهدي زعيم حزب الأمة السوداني ورئيس وزراء السودان الأسبق الذي استضافته لجنة الوفد بالمنصورة للحديث في مؤتمر حاشد عن هموم العالم العربي... وقد أفاض السيد الصادق المهدي في تحليل العلاقات المصرية السودانية... وتناول قضية الديمقراطية ثم انتهى إلى موقف العرب من الولايات المتحدة بعد حرب العراق... وأكتفي بالمقطع الأخير من حديثه الجامع لما ينطوي عليه من خطورة وما يكتسيه من أهمية في إعادة بناء الصرح العربي المتهدم... والرجل لا يطلق صيحة الحرب ضد الولايات المتحدة... ولا ينادى أيضاً بالاستسلام والخضوع لمشيئتها... ولكنه يطالب بانتهاج سلوك عربي ذكي للنفاذ من ثقوب السياسة الأمريكية وثغراتها إلى أعماق العقل الأمريكي الذي يعج بتيارات متلاطمة... يسبح فيها الصقور والحمائم وما بينهما من كل ألوان الطيف السياسي!!! ومن هذا المنطلق يقول السيد الصادق المهدي نستطيع نحن العرب أن نلمس

الوتر الذي يمكن أن نلعب عليه... ولنمى اتجاهه في صالح خدمة القضايا العربية... فالإدارة الأمريكية الحالية وما سبقتها والأحزاب السياسية التي تساندها تعج بمختلف الألوان والأشكال السياسية... وقد رأينا كيف وقف بعض المسئولين الأمريكيين في إدارة بوش وحزبه السياسي ضد سياساته... وكيف خرج عليه قطاع كبير من الرأي العام الأمريكي يجادله ويعارضه ويطالب بوقف الحرب على العراق... فما الذي يمنع العرب من سلوك هذا النهج بدلاً من مناطحة الصخر أو الاستسلام للتبعية والهيمنة!!!

هذا الكلام المنظم الجميل... يقابله في الساحة العربية صخب كبير وضياع أكبر فلا أحد يعرف للعرب خطاً واضحاً... ولا سياسة محددة... بل نسمع قعقعة ولا نرى طحناً... فبين " صقور الكلام " ودعاة الاستسلام فرق قليلة تبحث عن طريق إلى عقل الإدارة الأمريكية والرأي العام الأمريكي... وقد أخفقت هذه الفرق حتى الآن في تشكيل قوة دفاع فعالة عن وجهة النظر العربية داخل الولايات المتحدة وأوروبا... وإن كانت قد نجحت نجاحاً محدوداً في كسب التأييد ضد التدخل العسكري في العراق... المؤسف أن هذه الفرق لم تحظ بالتأييد والمساندة لا من الأحزاب والنقابات ومنظمات المجتمع المدني ولا من الجامعة العربية إلا في حالات قليلة نادرة... فضلاً عن أنه لا يوجد مخطط دقيق ولا جهد جماعي عام في هذا الاتجاه رغم العدد والمدد الذي تملكه الجاليات العربية في أوروبا وأمريكا والذي يفوق بكثير ما تملكه الجاليات الصهيونية في العالم الغربي!!!

لقد طرحت العديد من المقترحات حول تأسيس قنوات تلفزيونية تخدم القضية العربية في الولايات المتحدة كما طرحت العديد من التصورات حول تشكيل جمعيات ومؤسسات تستهدف نفس الغرض... ولكن مازال القصور والضعف ومازال التردد والخوف يلقى بظلاله على العرب والعروبة في الداخل والخارج... ومازالت في النهاية التوجهات الحكومية الرسمية تسلك الاتجاه الخاطئ... وتمعن في ارتياده وكأن شيئاً لم يتغير في هذا العالم!!!

ولا يخفى ما يعشش في الأذهان من أساطير حول قوة اللوبي الإسرائيلي الذي يسيطر على السياسة الأمريكية... ويديرها لحساب مخططاته وأطماعه... رغم ما للعرب من إمكانات واسعة لتأسيس لوبي عربي مضاد... ورغم ما بين أيديهم من أوراق هامة لم يحاولوا حتى الآن استخدامها في اللعب على موائد السياسة الدولية!!!

إن الفقر الفكري والانكسار النفسي وسوء التنظيم السياسي والإعلامي قد هزم القضية العربية في كل محفل... ومازال يهزمها لأن الكذب والتضليل هو البضاعة الرائجة في وطننا العربي... وتبرير العجز الرسمي عن فعل أي شئ هو الشغل الشاغل للحكومات العربية ومن هنا كانت ضرورة إعادة النظر في البنيات السياسية للنظم العربية... فالديمقراطية هي الأساس وهي المنطلق... فلم يعد ممكنا مواجهة المستقبل بنظم سياسية عاجزة وأحزاب سياسية عليلة... وشعوب مهمشة لا تملك من أمرها شيئاً!!!

ويؤكد السيد الصادق المهدي أننا لن نجد صدى فعالاً لجهودنا من أجل استخلاص حقوقنا إلا إذا رسخنا الديمقراطية في بلادنا، فالديمقراطية هي التي يمكن أن توحد صفوفنا وتجمع كلمتنا... وتدفع العالم إلى احترامنا وتقدير جهودنا... ويطرح زعيم حزب الأمة تجربته الحزبية ويؤكد أن حزب الأمة أعاد تشكيل هياكله ولجانه على أسس ديمقراطية صحيحة فالانتخاب هو الأساس الذي يجرى عليه التصعيد القيادي داخل الحزب... وقد تمت الانتخابات الأخيرة من القاعدة إلى القمة بالاقتراع السري المباشر... وهكذا أصبح حزب الأمة أكثر استعداداً للعمل السياسي الجاد في المراحل الدقيقة القادمة!!!

المؤسف أن ما قدمه السيد الصادق المهدي من تحليل وتعليل لمفهوم الديمقراطية نظرية وتطبيقاً مازالت تنكره قوى عديدة في وطننا العربي... وهي في أغلبها قوى ركبت السلطة وتمرغت في نعيمها وترفض التخلي عنها بالطرق السلمية التي تتيحها الديمقراطية... ورغم كل البلاء الذي لحق عالمنا العربي فمازال الإصرار على هذا الموقف قائماً... وتلك خطورة لابد من احتوائها بعمل جماعي منظم تقوده الأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدني وعليها أن تبدأ بتنظيم صفوفها والالتزام بالمبادئ الديمقراطية في توجهاتها وإذا لم تفعل وفي هذه الأزمة التاريخية فلابد أن تفقد سبب وجودها وينفض الناس من حولها وتصير مواتاً كالعرجون القديم!!

أمريكا وصناعة الاستبداد

شكراً للحكومة الأمريكية... فقد تمكنت لأول مرة من توحيد كلمة العرب على كراهيتها!!! وهذا في حد ذاته انتصار لإرادة الأمة العربية وفتح مبين لعظمتها وقدرتها!!!

ولكن هذه الشحنة الهائلة من الغضب العربي لا تتجه إلى الشعب الأمريكي ولكنها تتجه إلى الإدارة الأمريكية... فالشعب الأمريكي شعب عظيم ومتفوق... وتاريخه كفاح متواصل ضد الاستعمار والتسلط... ومبادئه التي خطها دستوره الدائم تقوم على العدل والمساواة واحترام حق الشعوب في تقرير مصيرها... ولكن إدارته السياسية قد جارت كثيراً على تلك القيم والمبادئ... وسلكت سلوكاً آخر يناهض هذه المبادئ والقيم في التعامل مع الشعوب الأخرى!!!

ولا شك أن الحجم الدولي المؤثر للولايات المتحدة أثناء الحرب العالمية الثانية... ثم ظهورها كقوة كبرى بعد هذه الحرب... واضطلاعها بعبئ الدفاع عن العالم الغربي في مواجهة دول الكتلة الشيوعية... قد أثر في قواعد السياسة الأمريكية وغير مجراها... ودفعها إلى طريق شيطاني في التعامل مع العالم الثالث الذي كان يتطلع للتحرر والاستقلال... فقد كان الدب الروسي يتحفز لالتهام هذا

العالم وكان على الولايات المتحدة أن تتعامل مع العالم الثالث بأسلوب انتهازي يحمي مصالحها الحيوية من شراسة الدب السوفيتي... وقد وجدت الإدارة الأمريكية في سياسة التعامل مع النظم الدكتاتورية أضمن وسيلة لحماية مصالحها الحيوية... فدول العالم الفقير ليست مؤهلة للحكم الديمقراطي... ومن هنا فالمؤسسات العسكرية في هذه الدول هي التي تمتلك القوة والانضباط الذي يؤهلها للحكم... ويمكن من فرض السيطرة الأمريكية من وراء الستار... هكذا عرفنا الانقلابات العسكرية في أمريكا اللاتينية... وفي الشرق الأوسط... وعرفنا أيضاً التعامل الأمريكي الوثيق مع النظم الدكتاتورية بكل أدواتها التقليدية... وكان أبرزها نظام الشاه في إيران... ونظام عبد الناصر في مصر... ونظام القذافي في ليبيا... ونظام صدام في العراق!!!

وفي كل مرة تستشعر الإدارة الأمريكية قصوراً أو انحرافاً من النظم الحليفة إلا وسعت إلى تأديبها أو استبدالها... وقد شهدنا ذلك في نظام الشاه بإيران عندما هددته ثورة الخميني ولم يستطع تصفيتها... ونظام عبد الناصر عندما سقط في قبضة النفوذ السوفيتي... وصدام حسين عندما تجرأ على غزو الكويت... ومعمر القذافي... عندما لعب بكارت الإرهاب الدولي... هؤلاء جميعاً صفعتهم الإدارة الأمريكية عندما خرجوا على النص وقررت تأديبهم أو تصفيتهم على طريقتها... ولكن لم تفكر هذه الإدارة مرة واحدة في مصير الشعوب المحكومة... ولا في المعاناة التي تعيشها تحت وطأة هذه النظم ولم تعبأ بما أنزلته بشعوبها من مصائب وآثام... بل ظلت تساندها بالمال والدعم من كل لون رغم

ما ترتكبه من أخطاء وانحرافات ابتداء بتزوير الانتخابات وانتهاء بالقهر والفساد... والفشل الاقتصادي والاجتماعي!!!

ما الذي كانت تنتظره الإدارة الأمريكية من هذا الدعم المتواصل للنظم العربية الشمولية؟! هل كانت تتوقع أن يقابلها الناس بالورود... وأن يهتفوا لها بالخلود؟! لقد كان طبيعياً أن تخرج من صفوف الشعوب العربية العديد من التيارات السياسية المناهضة لسياستها... الداعية إلى مقاومتها... الباحثة عن طريق للخلاص من قبضتها...

ولا ندرى لم الدهشة ولم العجز عن التوقع مع كل هذه الأجهزة والمؤسسات الاستخبارية والبحثية التي تملكها الإدارة الأمريكية ولم الغضب عندما تفاجأ بمن يطلق النار أو يفجر المباني الأمريكية من جماعات إسلامية ولدت من تحت عباءة النظم الاستبدادية التي صنعتها أو دعمتها هذه الإدارة!!!

لقد كانت محافظة أسيوط تضطرم بالعنف والإرهاب لسنوات طويلة... وكان الصدام اليومي بين الشرطة والجماعات الإسلامية العنيفة يخلف كل ساعة عشرات القتلى والجرحى من الجانبين... وعندما هدأت أسيوط بعد اعتقال الكثيرين من هذه الجماعات... انتقل العنف إلى محافظة المنيا... وشهدت المحافظة مواجهات دموية شديدة استمرت سنوات طوالاً... وتمكنت الحكومة أخيراً من السيطرة على الموقف... ولكن بعد أن أريقت دماء كثيرة... ولم نسمع خلال هذه المواجهات الدامية رأياً أو قولاً أو احتجاجاً من الحكومة الأمريكية!!! بل سكوت مطبق عن كل ما يجرى في مصر... ولكن ما

فعلته الحكومة الأمريكية هو المتابعة والرصد والتسجيل من خلال أجهزتها الدبلوماسية والأمنية في مصر أما غير ذلك فلم نجد موقفاً واحداً يشير إلى الأسباب أو يبدى نصحاً في كيفية مواجهة ظاهرة العنف السياسي الذي تمارسه الجماعات الإسلامية على الساحة المصرية!!!

ولكن بدأ اهتمام الولايات المتحدة بمعرفة الأسباب والدوافع والتعمق في ملفات العنف والإرهاب في مصر وغير مصر... عندما بدأ التيار الإسلامي العنيف يوجه ضرباته إلى المصالح الأمريكية في الخارج... فهنا فقط بدأت الدراسات والتحاليل تتناول النظم الحاكمة في العالم العربي... وبدأ الحديث عن الفشل الاقتصادي والفقر والبطالة وتدنى الخدمات إلخ إلخ الذي تعانيه معظم شعوب المنطقة... رغم المعونات ورغم القروض... وكان من الواضح أن هذه النظم مسئولة مسئولية مباشرة عن إساءة إدارة المجتمعات العربية مما أفرز في النهاية تيارات سياسية إسلامية تؤمن بأسلوب القوة والعنف في إسقاط هذه النظم لإقامة صرح الدولة الإسلامية القادرة في يقين هذه التيارات عى تحقيق العدل والرخاء والإخاء!!!

هكذا تجمعت الحقائق واضحة جلية عند الإدارة الأمريكية... وهكذا بدأت مراجعات للسياسات الأمريكية تجاه النظم الحاكمة في المنطقة!!!

صحيفة سوابق

لم يكتف الرئيس بوش برسم خريطة الطريق للشعب الفلسطيني بل يصر على إعادة رسم خريطة المستقبل للعالم العربي!!! وقد أسهب سيادته في وضع التصورات وإعداد الخطط لإعادة بناء المجتمعات العربية من جديد ابتداء بالنظم السياسية وانتهاء بالتربية والتعليم والثقافة وحقوق الإنسان... وفي خطابه الأخير بجامعة كارولينا أفاض الرئيس في شرح أفكاره وتصوراته حول النهوض بالعالم العربي... وكلها من البداية إلى النهاية تصورات جيدة إن تجاوزت الورق الذي كتبت عليه!!!

الرئيس بوش يضع لعالمنا العربي الإطار العام للمستقبل ومناخ الحرية الذي يجب أن ينعم به في ظل حكومات ديمقراطية منتخبة... ويؤكد بشدة أن العرب جميعا يستحقون هذه الحرية والديمقراطية ولا يجوز بحال أن يحرموا منها... أما الإسلام الذي تدين به الأغلبية العربية فهو دين الحرية والعدل والإخاء.... وهو من أعظم الديانات التي عرفتها البشرية، والإرهاب بكافة صوره ليس عملاً إسلاميا ولا يجوز أن ينتسب لهذا الدين العظيم بل هو عمل شرذمة ضالة تريد قيادة العالم إلى الدمار... ثم يؤكد الرئيس بوش أن الولايات المتحدة معنية

جداً بالشرق الأوسط... ومهتمة جداً بكل ما يجرى فيه من أحداث... وقد تمكنت من إسقاط أخطر الدكتاتوريات التي كان يعاني من عدوانها وجرائمها... وهكذا تحررت العراق وبدأ الشعب العراقي يتنسم الحرية... وسوف يجد طريقه إلى الديمقراطية من خلال اختياره الحر النزيه... أما الفلسطينيون فسوف تقوم دولتهم... وسوف تتحرر إرادتهم عندما يجدون كل ما يستهدفون في خريطة الطريق التي سيجرى تنفيذها مع رئيس الوزراء الفلسطيني الجديد!!!

هكذا يزداد الرئيس بوش توهجاً وهو يشرح في حماس بالغ أفكاره وتصوراته للعالم العربي... ويفتح أبواب الأمل المغلقة على مجتمعات عربية متخلفة ضائعة... ويطرح لأول مرة مشروعاً طموحاً لسوق تجارة عربية أمريكية تنهض بالاقتصاديات العربية وتدفع بها إلى التنمية والتقدم... ويمضى الرئيس بوش في بث النوايا الطيبة التي تحملها الإدارة الأمريكية للشعوب العربية ويتعالى التصفيق كلما عاد إلى التأكيد على التزامه الشخصي بتحقيق الحرية والديمقراطية وصيانة حقوق الإنسان وكأن الإدارة الأمريكية معصومة من أخطاء الماضي ولا تتحمل أي مسئولية عن السياسات والمواقف التي أدت إلى تفشي الدكتاتورية في عالمنا العربي وإيغال الإدارة الأمريكية في مساندتها ودعمها واستخدامها لخدمة مصالحها بصور وأشكال مختلفة طيلة النصف الثاني من القرن العشرين!! وخلال هذه الحقبة الطويلة التي شهدت صعود نجم الولايات المتحدة على المسرح الدولي ومنافستها للإتحاد السوفيتي في السيطرة على العالم الثالث... خلال هذه الحقبة لم تشهد الشعوب العربية وقفة أمريكية واحدة مع الحرية والديمقراطية

وحقوق الإنسان... بل كانت هذه القضايا من صميم اختصاص النظم العربية الحاكمة أما اختصاص الولايات المتحدة فلم يكن سوى تمرير مصالحها البترولية والتجارية في المنطقة العربية ومساندة إسرائيل في مواصلة عدوانها على الشعب الفلسطيني والشعوب العربية!!!

كانت الولايات تبرر هذا السلوك بالحرب الباردة ومخاطر المد الشيوعي إلى العالم العربي... ومن هنا كانت حاجتها لحكم المؤسسات العسكرية والدكتاتوريات الوراثية فهذه الأنواع من الحكم المطلق هي التي تصلح لقيادة العالم العربي بل العالم الثالث كله في هذه المرحلة الدقيقة!!! وكان الفقر والجهل وانتشار الأمية السياسية من أهم العوامل التي مكنت لهذه النظرية في عقول الساسة الأمريكيين ودفعت بهم إلى نبذ فكرة الديمقراطية في العالم الفقير... ولم تبدأ هذه النظرية في الأفول إلا مع سقوط الاتحاد السوفيتي وتحرر أوروبا الشرقية والجمهوريات السوفيتية من حكم الفرد... وانتشار النزعة الديمقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان في العالم أجمع!!!

ولكن الانهيار الفعلي لنظرية الحكم بالقوة لم يبدأ إلا منذ خروج تيار الإسلام السياسي العنيف إلى الساحة الدولية وامتداد ضرباته إلى الولايات المتحدة وإسرائيل... ولم يكن صعباً إدراك الأسباب التي أدت إلى قيام ظاهرة الإسلام السياسي العنيف والذي يدعو إلى تغيير النظم الاستبدادية العربية بالقوة... فقد أفرزت هذه النظم أخطاء وخطايا أدت إلى استحضار هذا التيار واستنهاضه في طول العالم الإسلامي وعرضه!!! كما لم يكن صعباً معرفة الأسباب التي أدت إلى بلورة عداء هذا التيار للولايات المتحدة وحلفائها... باعتبارها الصانعة أو المدعمة

لهذه النظم الاستبدادية... من أجل رعاية مصالحها ومصالحها فقط ضاربة عرض الحائط مصالح الشعوب العربية المضطهدة... وكان التجسيد البارز جداً والصارخ جداً لهذه المصالح الأمريكية هو الدعم المطلق لإسرائيل على حساب العالم العربي كله!!!

لماذا إذن نطالب الشعوب العربية بتصديق الإدارة الأمريكية عندما تعلن عن نواياها الطيبة ورغبتها في إقرار الحرية والديمقراطية في العراق بل وفي العالم العربي كله!!!

إن "صحيفة سوابق" الإدارة الأمريكية عامرة بكل أنواع العدوان الصارخ على الديمقراطية وحقوق الإنسان... ولولا النظم الشمولية التي تدعمها الإدارة الأمريكية وترعاها ما كان يمكن أن يتجمد المد الديمقراطي بل ويتراجع في دول عربية عديدة... كان لها تاريخ في الديمقراطية وأصول الحكم!!! فقد أفسدت هذه النظم بتسلطها وطغيانها النمو الطبيعي للوعي الديمقراطي وارتكبت من خلال التربية والتعليم والإعلام أكبر تضليل للعقول والأفهام حول معنى الديمقراطية وضرورتها في بناء الشعوب!!!

والآن يريد الرئيس بوش أن نصدقه ونؤمن بوعوده الخلابة... ونحن على استعداد كامل لتصديقه والهتاف الحاد بحياته شريطة أن نرى من إدارته برهاناً واحداً على صدق النوايا والوعود التي تفيض بها أحاديثه!!! وهذه هي خريطة الطريق بلا طريق وتلك هي العراق تعاني الخراب والضيق فما الذي يدفعنا إلى التفاؤل... وما الذي يدعونا إلى التصفيق... حتى الآن لا شئ!! فالكرة مازالت في يد الرئيس بوش... فهل ينجح في إصابة الهدف؟!!

الديمقراطية إرادة وقدرة

هناك من يراهن على قدرة نظامنا السياسي في التحول إلى الديمقراطية!!! ونحن لا نملك قبول الرهان لأن هناك فارقاً كبيراً بين إرادة التحول والقدرة على التحول!!! فمعظم النظم الشمولية في المنطقة العربية لم تكن راغبة في الديمقراطية... ولكن الظروف الدولية المستجدة ربما أجبرتها على قبول هذه الرغبة!!! ولكنها في الأغلب تعجز عن تنفيذها والتحول إلى الديمقراطية إن أرادت... والسبب أنها تجمدت طوال الممارسات الشمولية على أوضاع لا يمكنها التخلص منها.... وارتبطت بشخصيات لا تستطيع الفكاك من هيمنتها... وصارت المصالح تغذى إبقاء كل شيء على ما هو عليه والدفاع عنه حتى الموت؟!

هذه المصالح المرتبطة بالسلطة والمتحكمة في مقاليدها... هي ما عبر عنه الرئيس السادات يوماً بمراكز القوى والفكرة لا تعنى أكثر من ارتباط السلطة أو بعضها برموز سياسية تمثل مجموعة من المصالح الخاصة... وبالتالي فإن إرادة التحول إلى الديمقراطية إن وجدت لابد وأن تجد معارضة شديدة عند هذه الرموز ومحاولتها تقديم بدائل وهمية توحي بالتوجه إلى الديمقراطية... أو العزم على تطبيقها!!!

ولكن السؤال الأهم يدور حول قدرة نظامنا السياسي على التحول إلى الديمقراطية إذا توافرت إرادة هذا التحول.. وبمعنى آخر هل يملك هذا النظام بعد كل هذه السنوات الطويلة من الممارسات الشمولية... هل يملك القدرة على التحول إلى الديمقراطية الحقيقية بخطوات واثقة مدروسة وبناء على مخطط زمني يجرى تنفيذه خلال مرحلة انتقالية"!

لقد طرح حزب الوفد ومعه جبهة الأحزاب هذا التصور على القيادة السياسية منذ أكثر من عشر سنوات عندما نادى الرئيس مبارك بإجراء حوار وطني مع كافة الأحزاب السياسية المعارضة... وكان حزب الوفد مرحباً بهذا الحوار شريطة أن يتناول قضية الإصلاح السياسي إلى جانب القضايا الاقتصادية والاجتماعية المطروحة على مائدة الحوار... وطالب الوفد ومعه أحزاب العمل والتجمع والأحرار أن يدرج الحوار حول هذا الإصلاح في جدول أعمال المؤتمر... وجرى الاتفاق بين رؤساء الأحزاب أن يتم الانسحاب من المؤتمر إذا لم يدرج هذا المطلب في جدول الأعمال...

وعندما تبين في الجلسة الافتتاحية للمؤتمر غيبة الإصلاح السياسي من جدول الأعمال انسحب فؤاد سراج الدين رئيس الوفد من الجلسة الافتتاحية.. ولكن رؤساء الأحزاب الآخرين آثرا عدم الانسحاب!!! وانتهى المؤتمر إلى لا شيء!!!

كانت فرصة ضائعة... فعشر سنوات مرت كانت تكفي لتحقيق عشر إصلاحات سياسية... ولو بدأنا المسيرة الديمقراطية منذ هذا التاريخ لما سقطنا في هذا المأزق التاريخي الذي يلزمنا اليوم بإجراء

الإصلاح السياسي دفعة واحدة وفي زمن وجيز!!! ولكن قادة الثبات ودعاة الاستقرار أرادوا أن نثبت وأن نستقر على نظام عاجز عن أي إصلاح... بحجج ومبررات واهية منها الخلافات التي يمكن أن يطرحها تعديل الدستور أو تغييره... ومنها التهديد الذي يمثله الإرهاب للسلطة إذا ما أطلقت الحريات... ومنها الخوف من استيلاء التيار الإسلامي على الحكم إذا ما أجريت انتخابات نزيهة!!!

ولا نشك في وجود مخاوف ومحاذير بعد حكم شمولي استطال حوالي نصف قرن...!! ولكن لابد من القبول بالمخاطر التي يحملها الإصلاح السياسي إن أردنا حقاً الانتقال إلى الديمقراطية... ففي كل خطوة إصلاحية صعاب ومشاق... ولا يجوز أن يكون الخوف من التغيير والانتقال إلى الأفضل سبباً في هذه الوقفة المشلولة التي أدت وتؤدى إلى تفاقم أزمتنا الاقتصادية والاجتماعية... ومحاصرتنا في عنق الزجاجة القاتل بلا أدنى أمل في الخلاص رغم القروض والمعونات والهبات والأمنيات الحلوة التي تنطلق يومياً من مجلس الوزراء!!!

ولا أحسب أن هذه القوى المعارضة للتغيير... والمعطلة لكل تحول سياسي جاد نحو الديمقراطية سوف تصمد طويلاً أمام الضغوط الاقتصادية الملحة والأزمات الاجتماعية الطاحنة... فنحن اليوم أمام أكبر عجز في موازنة الدولة... وأيضاً أمام أكبر تراجع في الاستثمارات... وقد برزت الآثار السلبية في تفاقم البطالة... وتآكل الدخول... واشتداد معاناة الأغلبية الساحقة من المواطنين!!!

ولا أخال أن الإنقاذ يمكن أن يكون بمزيد من القروض والمعونات... ولا بمزيد من الكلام المعسول... والوعود الخلابة فالحلال بين والحرام بين... ولا إنقاذ ولا خلاص إلا بوضع الاقتصاد في إطاره الديمقراطي فالتنمية الاقتصادية لا يمكن أن تتحقق بغير رقابة ومسئولية وعدالة... يفرضها دستور ديمقراطي وتؤمنها حكومة شعبية فهل نظامنا السياسي إن أراد قادر على تحقيق هذا المطلب الوطني؟!

زعامة القوة

الزعيم أو الرائد أو القائد لا يكتسب الزعامة أو الريادة أو القيادة إلا بمواصفات خاصة تجتذب الناس إليه وتجمعهم حوله... وتضعهم رهن إشارته ليصبحوا في خدمة الأهداف النبيلة التي يسعى إلى تحقيقها... والزعماء والقادة لا يأتون إلى مواقع الزعامة والريادة إلا محمولين على أعناق الجماهير... فالأغلبية هي التي تختارهم... وهي التي تتوجهم وهي أيضاً التي تسقطهم إن أساءوا التصرف وخانوا العهد أما القادة الذين ركبوا بلادهم بالقوة والخديعة فإنهم يشتركون في أمر واحد هو تضليل المواطن حول حقيقة أهدافهم وتعميته عن جوهر سياستهم... حتى إذا ما أخطأوا أو عاثوا في الأرض فساداً وجدوا الأجهزة والمؤسسات التي تبرر تصرفاتهم وتخفي هزائمهم... وتسقط مسئوليتهم... وتبرئ ساحتهم!!!

هكذا عرفنا النظم الشمولية في عالمنا العربي... تصنع الزعامة... وتفرض الولاء للزعيم وتنطلق بقوة تبرر أفعاله وأقواله... وكانت مصر الثورة في عالمنا العربي هي البؤرة الأساسية لهذا الفن الهابط من فنون الدعاية السياسية... ومنها تعلمت الكثير من النظم العربية مبادئ الكذب المنظم وأصول النبرة المتعالية بمعاني القوة والقدرة... وأساليب

"الردح الإعلامي" الذي يرتفع أحياناً إلى مستوى القذف والسب المعاقب عليه في القوانين الجنائية!!! ولعل مصر الثورة هي الدولة الوحيدة في هذا الكوكب التي تغنت للثوار... وتغزل شعراؤها في أقوالهم وأفعالهم... وكان كبار نجوم الغناء وصغارهم لا يكفون عن التلحين والغناء لشخص عبد الناصر في كل مناسبة وأحياناً في غير مناسبة!!! بل وكانت الأغنية المصرية خلال هذه المرحلة وسيلة رخيصة لنشر الشعارات الثورية... وتلقين الأجيال الناشئة معاني فاسدة... ومفاهيم مغلوطة مازال بعضها لاصقاً بالعقول حتى اليوم!!!

ولقد تحملت العروبة من هذه المعاني والمفاهيم الشيء الكثير... وساد العالم العربي تيار محموم من القومية العربية... ولكنه مع الأسف لم يكن سوى تيار كلامي لا يتعدى المسموع من الإذاعات والمقروء من الصحف... فلم تكن هناك نظرية محددة... ولا رؤية واضحة... ولا خطة سليمة لبناء الوحدة العربية... وتحويل الشعارات التي تلهب المشاعر وتداعب الأحلام بعالم عربي موحد إلى واقع ملموس... وبدلاً من أن تتجه دعوة القومية العربية إلى بناء الأسس الحقيقية للوحدة... والتمهيد لهذا البناء بتوحيد القوانين والنظم والآليات المعمول بها في الدول العربية... وتقريب الهوة بين الشعوب العربية بربط الاتصال والتواصل بينها ثم تشجيع الاستثمار وفتح الحدود ورفع الحواجز الجمركية لتنشأ بالتدريج ووفق مراحل زمنية سوق عربية مشتركة تكون القاعدة والمنطلق لوحدة عربية شاملة بدلاً من كل هذه التمهيدات المدروسة المتأنية القائمة على التوعية والإقناع انتهت دعوة الوحدة على أيدي الثوار إلى طريق آخر... هو طريق العنف والتآمر

بهدف تحقيق الوحدة بالقوة... بالانقلابات العسكرية أو بالثورات الشعبية!!! وقد ترتب على هذا المنطق الذي تسابق في استخدامه جمال عبد الناصر وأحزاب البعث في سورية والعراق... تمزق وتشرذم بين دول العالم العربي... وانقسام حاد بين دول عربية تقدمية ودول عربية رجعية... ومعارك كلامية لا تنتهي... فاضت بها أجهزة الإعلام العربي على امتداد عقد من الزمان!!!

كانت شخصية الزعيم جمال عبد الناصر تستملح بحق هذا المنطق وهذا السلوك في بناء الوحدة العربية على المشاعر والعواطف الجياشة... وعلى استحضار أمجاد العرب التاريخية... وفضلهم الكبير على العالم الغربي... وانتصاراتهم في القدس والأندلس... ومهاراتهم الفائقة في علوم الطب والحساب والفلك إلخ إلخ...!!!

وطفحت الكتب المدرسية وخاصة كتب التربية الوطنية بهذه المعلومات التاريخية... ولكن غابت تماماً العلوم والمعارف التي تحدد طريق المستقبل... وترسم بموضوعية الوسائل الكفيلة بارتياده!!!

هل هو جهل بواقع العالم العربي وحقيقة القوى العالمية التي تحيطه أم هي الانتهازية واقتناص الفرص هو الذي دفع بعبد الناصر إلى ركوب موجة الوحدة... والاتجاه بها في خط مضاد تماماً لتحقيق الوحدة!!!

هذا هو السؤال نوجهه لهواة الدفاع عن الفشل... وأساتذة تبرير الكوارث وتلبيسها ثوب الأمجاد... فهل تصل براعتهم في هذا الباب إلى حد التعلل بظروف المرحلة للادعاء بأن وراء هذا التوجه الفاشل في بناء الوحدة العربية الإمبريالية العالمية والصهيونية الخبيثة!!!

نحن لا ننكر أن للوحدة العربية في ذاك الزمان وحتى الآن أعداء وخصوماً... وأن الإمبريالية والصهيونية تناهض بالقطع الوحدة العربية... ولكن هل أملت هذه القوى المعادية على عبد الناصر هذا التوجه الخاطئ؟! هل دفعته إلى هذا الطريق المقلوب لبناء الوحدة؟! أم أن هذا التوجه وهذا الطريق كان من بنات أفكاره ومن محض اختياره... خاصة عندما وجد أصداء مجنونة في سورية أدت إلى "زواج متعه" لم يصمد سوى ثلاث سنوات!!! كان على الذين فجعوا في صدام أن يسترجعوا هذا الماضي القريب... وأن يتعلموا أن السير في طريق عبد الناصر لتحقيق الزعامة... وبناء الوحدة لا يكون إلا ببناء الهرم من قاعدته لا من قمته... فوحدة اللغة والتاريخ والدين لا تكفي أبداً لتوحيد أمة باعد الاستعمار بين شعوبها قروناً طويلة... ومزقها إلى إمارات ودويلات معزولة... إنما الوحدة الحقيقية تبنيها وحدة الأهداف والمصالح المشتركة ويدعمها التقارب التربوي والتعليمي والثقافي... وهكذا كان المثال الصارخ للوحدة الأوروبية التي قامت على أكتاف السوق الأوروبية المشتركة خلال مسيرة شاقة وطويلة عمرها على الأقل خمسون عاماً من التهيئة والتمهيد بين دول تتكلم لغات متعددة... وتسكنها أعراق متعددة... وكانت هذه التجربة حاضرة تماماً أمام صدام حسين... وكانت المقارنة مطلوبة بين التجربتين تجربة الوحدة العربية بزعامة عبد الناصر ونظامه الشمولي وتجربة الوحدة الأوربية بزعامة القادة الأوربيين ونظمهم الديمقراطية وكان عليه أن يتعلم من فشل الوحدة المصرية السورية التي قامت على أحلاف حكام تلاقت مصالحهم الشخصية فاتحدوا ثم تباعدت بعد ذلك مصالحهم.

فانفصلوا... وكان عليه أيضاً أن يخجل من الوحدة الكلامية التي أجادها معمر القذافى حتى أعلن الوحدة مع طوب الأرض ثم فصم عراها بجرة قلم!!!

ولكن صدام انتهج نفس الطريق... وخطا على نفس الدروب التي نكبت الوحدة العربية وانبرى يعلن وحدته مع سورية مرة... ومع مصر والأردن مرة أخرى... ثم انتهى إلى أسلوب الوحدة بالقوة... فضم الكويت إلى العراق بالغزو المسلح وتحفز لابتلاع السعودية ودول الخليج وجاءت هذه التجارب الوحدوية عليلة هزيلة... ولم تلبث أن انفض المولد بالسرعة التي بدأ بها ولكن بعد نزيف دموي... وتدخل أجنبي وانقسام عربي مهد الطريق لهيمنة الولايات المتحدة على العالم العربي وإجراء التسويات التي تتفق ومصالحها... وكان عراق صدام هو الركيزة الأساسية لقفزة الهيمنة الأمريكية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر... ورغم وضوح الرؤية... في غزو أفغانستان وضرب تنظيم القاعدة... فقد كان الضباب يخيم على عقل صدام ومعاونيه... وكان أسلوب المكابرة والعناد يغلب أسلوب التفكير والتدبير حتى بعد أن أعلنت الإدارة الأمريكية صراحة أنها لا تريد سوى رأس صدام ونظامه الشمولي... حتى بعد هذا الإعلان الذي سبق الهجوم الأمريكي بأسابيع قليلة... لم يهتز ولم يتراجع... وخيل للكثيرين أن الرجل يملك قوة عظمى لا يعرفها أحد!!!

وأن وراءه مفاجأة عسكرية كبرى سوف تردع جيوش الولايات المتحدة وتردها على أعقابها خاسئة حسيرة!!!

ولكن ثبت بعد أسابيع من الحرب أن الرجل يناور ويراوغ ويكذب... ويصنع من خياله قوى قادرة على مواجهة الغزو الأمريكي... وربما كان ذلك كما تدل بعض الشواهد باتفاق مسبق مع الإدارة الأمريكية... أو باتفاق لاحق معها بعدما بدأت الحرب!!! وربما يكون الرجل مقتولاً تحت الأرض بفعل الضربة الجوية الأمريكية الأولى أو الثانية على بغداد وبالتالي فهو برئ هذه المرة من تهمة التواطؤ مع الولايات المتحدة!!! وربما يكون قد هرب بعد أن تخلى عن كل سلطاته إلى كوبا أو روسيا...

وأخيراً ربما يكون الرجل مجنوناً أو معتوهاً فلا يجوز إذن أن نسأل عن الأسباب أو نهتم بالنتائج... فنحن شعوب لا تملك حق المعرفة في كل هذه الشئون فاليقين عندها هو ربما!!!

التكتل يا عرب

أبرزت ضربة الحادى عشر من سبتمبر وما تلاها من صحوة أمريكية ضد ما سمي بالإرهاب... أن المجتمعات العربية تحكم بأسلوب رديء... وتدار اقتصادياتها بما لا يخدم المصالح العربية... وأن سوء الإدارة الاقتصادية وفسادها قد أدى إلى توقف عجلة التنمية أو تراجعها وإذا استثنينا الدول العربية الخليجية حيث الكثافة السكانية المحدودة والعائد البترولي الضخم فإننا لا نكاد نجد دولة عربية فوق خط الفقر بل إن معظم هذه الدول تعانى من قصور كبير في الإنتاج واعتماد شبه مطلق على الاستيراد وعجز من كل نوع في موازينها التجارية وتهافت على القروض والمعونات الخارجية... ونجد هذه الظواهر المؤسفة بوجه خاص في دول عربية تنعم بثراء بترولي عريض وهي العراق وليبيا والجزائر فرغم هذا الثراء البترولي الهائل فإن هذه الدول الثلاث قد لحقها نفس المصير الذي لحق دولاً عربية أخرى مثل مصر والمغرب وسوريا!!!

وأساس العلة في هذا التخلف عن الانطلاق الذي أفرز كل هذه الظواهر الشاذة التي نعانى منها اليوم هو غيبة الديمقراطية التي لابد من وجودها لانتظام مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية... فالاستثمار

المنتج لا يمكن أن يكون ثمرة الأقلية البيروقراطية التي تتحكم في السلطة بعيداً عن كل رقابة شعبية... فغياب المؤسسات الديمقراطية التي تضمن دقة الأداء الرقابي والتشريعي والقضائي على حركة المجتمع تجعل من الاستثمار مغامرة خطرة وتفتح الأبواب لتسلل أصحاب النفوذ وتجار السلطة إلى حقل المال والأعمال وإفساد المناخ العام للاستثمار والتنمية... ولعل ما نشاهده في مصر وفي غير مصر من ألوان الفساد واستغلال النفوذ والاعتداء على المال العام لخير دليل عملي على هذه الحقيقة. ومن زاوية أخرى فقد ضربت النظم اللا ديمقراطية الوحدة العربية في الصميم... وعطلت نواتها الأولى وهي التكامل الاقتصادي العربي الذي يعتبر الأساس الأول للسوق العربية المشتركة... ومنذ عام ١٩٦٤ عندما قررت الدول العربية في إطار الجامعة العربية تأسيس هذه السوق لم تجر خطوة واحدة إلى الأمام... ولم يتحقق أي تعاون عربي فعال بين الدول العربية حتى على المستويات الثنائية وتسجل مؤشرات العلاقات التجارية بين الدول العربية بعضها البعض مستوى من التبادل التجاري لا يتجاوز ٦ % من حجم تجارتها الدولية!!!

هذه الكارثة لا تسأل عنها إلا النظم الشمولية العربية... فقد عزلت الجماهير الشعبية عن المشاركة في البناء الاقتصادي والعمل على تحقيق التكتل الاقتصادي العربي فقد اتسمت العلاقات العربية العربية طيلة نصف القرن الماضي بالتناحر أو الانعزال.. الذي تغذيه الصراعات السياسية على الزعامة والقيادة بينما انقسمت النخب العربية على نفسها بسبب التيارات الأيديولوجية الوافدة والتي مزقت

العالم العربي إلى شطرين شطر رجعي وشطر تقدمي... وفي خضم هذه الصراعات سلكت الوحدة العربية طريقاً خاطئاً تحت زعامة الدكتاتوريات الثورية التي أرادت أن تحقق الوحدة من القمة بالانقلابات والمؤامرات بدلا من تحقيقها من القاعدة ببناء جسور التقارب الاقتصادي والاجتماعي بين الشعوب العربية من أجل تحقيق السوق العربية المشتركة... ومن هذا الفشل في التجمع والتكتل دارت محاولات التنمية في العديد من الأقطار العربية بعزلة كاملة أو شبه كاملة عن ممكنات التكامل الهائل التي يتيحها الوطن العربي... وانتهت كل هذه المحاولات التنموية إلى الفشل أو التعثر دون أن تحقق انطلاقاً حقيقياً يعبر بها إلى القرن الواحد والعشرين ومن أظهر الأدلة على عجز التوجه إلى الكتل الاقتصادي العربي هو التفكك والانعزال الذي تعيشه المجتمعات العربية بسبب ضعف نمو شبكات النقل البرية والبحرية والجوية بين الدول العربية فلا طرق برية ولا سكك حديدية... ولا مواصلات بحرية... ولا خطوط جوية منتظمة... بل قطيعة وانعزال حتى بين الأقطار المتجاورة... ناهيك عن السدود المالية والقانونية والإدارية التي تفرضها الدول العربية على انتقال الأفراد والسلع ورؤوس الأموال بين الأقطار العربية... ورغم بعض الجهود المتواضعة التي بذلتها الجامعة العربية وبعض الدول العربية لربط الاتصال بين الأقطار العربية... وتشجيع انتقال رؤوس الأموال وإقامة المشروعات المشتركة فما زال العالم العربي ولأسباب سياسية بحته يعاني التفكك والتشتت ومازالت نسبة هامة من أمواله حكومية وأهلية تذهب للاستثمار أو التوظيف في الدول الأوروبية والأمريكية... بينما

تفتقر العديد من الدول العربية إلى رؤوس الأموال... وتلهث وراء القروض والمعونات وتتحمل أعباء مالية باهظة دون جدوى أو نتيجة!!!

لقد آن الأوان لرفع هذه السلبيات الخطيرة... واقتناص الفرص لإعادة هيكلة الأبنية السياسية للدول العربية... فلا شك أن الديمقراطية بما تبيحه من مشاركة شعبية حقيقية في أعباء البناء الوطني والقومي وبما تفرضه من ضوابط لتداول السلطة واحترام الرأي الآخر... لا شك أن مناخاً كهذا سوف يحفز القوى الوطنية على ارتياد طريق التنمية والدخول إلى حظيرة التكتل الإقليمي العربي الذي أصبح في عالم اليوم... عالم الكتل الكبيرة... ضرورة ملحة تعلو كل الضرورات القومية... فقد انتهى عصر الدول المنعزلة وجاء عصر العمل الجماعي التكاملي المنظم الذي يخلق سوقاً موسعاً وطاقة اقتصادية ضخمة قادرة على المنافسة والفوز في عالم التكتلات العملاقة الذي يطل علينا منذ بداية هذا القرن...

وأمامنا مثال شامخ للاتحاد الأوروبي الذي بدأ منذ سنوات طويلة بسوق أوروبية مشتركة وانتهى اليوم إلى اتحاد كبير يضم معظم الدول الأوروبية... ألا يجدر بنا أن نخطو بقوة في هذا الطريق الذي لا طريق غيره؟! إن الخطوة الأولى هي البناء السياسي لمجتمعاتنا على أسس ديمقراطية حقة فهل نحن بعد كل هذه التجارب والدروس عاجزون عن أن نخطو بمجتمعاتنا هذه الخطوة؟!!

بعد أن قرأت ..

لعلك تجزع مما قرأت... أو لعلك قانع بما قرأت مؤمن بالاستسلام للأمر الواقع... أو لعلك ثائر لما صارت إليه أوضاعنا... وما آلت إليه أجيالنا من تمزق وضياع!!! وربما لاحظت في الأوراق التي قرأت... الانتقاد المنصب على ثورة ٢٣ يوليو وثورات البعث العربي والنهايات الحزينة لهذه الثورات!!! وقد لا تعلم أن النبع الأصيل لثورة يوليو وكل ثورات العالم العربي هي الانقلابات العسكرية... وركوب الحكم بالقوة المسلحة ولعلك تتذكر أن كل هذه الثورات قد التقت على الالتزام بتحرير العالم العربي وتوحيده... وإزالة الوجود الإسرائيلي من أرضه!!!

ولعلك تعلم أن القاسم المشترك لهذه الثورات هو الحكم الفردي المطلق وسيادة الحزب الواحد... وتطبيق النظم الاشتراكية المستوردة من دول الكتلة الشيوعية!!! ولعلك تذكر أيضاً أن التسلح والتصنيع والفكر والثقافة في هذه الدول الثورية كان من واردات هذه الكتلة!!!

ولكنك بالقطع لا تعلم بالصلة الوثيقة التي كانت تربط هذه الثورات بالولايات المتحدة وحلفائها رغم ميلها الظاهر للكتلة الشيوعية ورغم رفعها الظاهر لأعلام الاستقلال والتحرر من التبعية...

وتلك هي العقدة التي استشكلت على الكثيرين إبان مرحلة الحرب الباردة فقد كانت الولايات المتحدة تصنع الانقلابات أو تدعمها بعد قيامها... وكانت تساند الكثير من النظم الحاكمة في عالمنا العربي... وكان الاتحاد السوفيتي ينافسها في فرض النفوذ ومحاولة السيطرة على العالم العربي وكانت الأبواب التي دخل منها السوفيت هي مصر وسورية والعراق واليمن وليبيا والجزائر وكلها دول تعني الولايات المتحدة وتمس إستراتيجيتها العسكرية والبترولية في الشرق الأوسط وكانت معظم هذه الدول وعلى رأسها مصر تتلقى القمح والمعونات من الولايات المتحدة... وتتلقى في نفس الوقت السلاح والمعدات الصناعية من دول الكتلة الشيوعية... وكان وراء هذا التنافس الأمريكي السوفيتي لبسط السيطرة على المنطقة العربية إسرائيل. . وكان سعيها الدائب لربط علاقات وثيقة مع الولايات المتحدة مستغنة في مساعيها مخاطر المد الشيوعي إلى العالم العربي والتي برزت ملامحه في التقارب المصري السوفيتي... ومن هنا كان التعاطف الأمريكي ثم الدعم... ثم التحالف الكامل مع إسرائيل... فقد كان على الولايات المتحدة أن تبحث لها عن ركيزة قوية ثابتة تتكئ عليها في هذه المنطقة الساخنة لحماية مصالحها الإستراتيجية من محاولات السيطرة التي يبذلها الدب السوفيتي... خاصة في مصر وسورية والتي وصلت إلى أوج قوتها في نهاية الستينات من القرن الماضي!!!

كان قادة النظم الثورية العربية هم الحلفاء السريون للولايات المتحدة والأعداء العلنيون لها!!! وعندما انقلب بعضهم عليها وأصبح يهدد مصالحها الإستراتيجية عمدت إلى تقويمه أو إسقاطه... وهذا

ما حدث بالضبط لجمال عبد الناصر عندما مال ميزان العلاقات بين الشرق والغرب الذي كان يلعب به لصالح السوفيت في بداية الستينات وأصبح يشكل خطراً داهماً على المصالح الأمريكية فقررت الإدارة الأمريكية ضربه وتأديبه في يونيو ١٩٦٧ ثم تركته حبيساً في قفص الهزيمة إلى أن وافق قبل وفاته على اتفاقية روجرز للسلام وهي الاتفاقية الأسوأ من اتفاقية كامب ديفيد والأشد منها شروطاً وقيوداً!!!

وهذا ما حدث أيضاً للعقيد معمر القذافي عندما بدأ يخرج على النص ويهدد المصالح الأمريكية فقد ضربته الإدارة الأمريكية... ثم حاصرته وفرضت عليه العزلة الدولية حتى استسلم وأصبح لا يشكل أي خطر!!!

وهذا ما حدث كذلك لصدام حسين بعدما ساندته الولايات المتحدة في حربه على إيران... ثم ضربته وحاصرته وعزلته عندما تجرأ واحتل الكويت وأراد أن يفرض سلطانه على دول الخليج والعالم العربي...

وفي كل الأحوال لم ينقطع بترول القذافي ولا بترول صدام عن التدفق لصالح الولايات المتحدة وحلفائها في أي لحظة وهو المصدر الأساسي لدخل العراق وليبيا كما لم ينقطع التعاون المصري الأمريكي خاصة بعد حرب رمضان وتوقيع اتفاقية كامب ديفيد... فقد أصبحت مصر صديقاً للولايات المتحدة وصارت تتلقى أكبر معونة أمريكية بعد إسرائيل!!!

ولكن منذ بداية العقد الأخير من القرن الماضي وقع انقلاب خطير في العلاقات الدولية فقد تفكك الاتحاد السوفيتي وانهارت الكتلة الشيوعية... وانتهت الحرب الباردة بين القطبين الكبيرين وانفردت الولايات المتحدة بالعالم!!!

وهنا برز للولايات المتحدة عدو جديد... كان عليها أن تواجهه في منابع البترول العربي... بل وفي مناطق عديدة من العالم وهو الإسلام السياسي العنيف الذي لاحت بوادره مع الثورة الإسلامية الإيرانية واشتد عوده مع التداعيات الداخلية للنظم الاستبدادية العربية التي تدعمها الولايات المتحدة ثم امتد نشاطه إلى خارج العالم العربي ليضرب المصالح الأمريكية في كل مكان وليشتبك في معارك يومية دامية مع العدو الإسرائيلي... هذا الإسلام السياسي العنيف كان نذير خطر داهم على المصالح الأمريكية في الحال والمستقبل وإن كانت الإدارة الأمريكية قد تعاملت واستغلت بعض روافده لصالحها من أجل القضاء على الوجود العسكري السوفيتي في أفغانستان!!!

هذه الخلفية تفسر ثورة الغضب التي فجرتها الإدارة الأمريكية ضد ما أسمته بالإرهاب في أعقاب كارثة سبتمبر الشهيرة... إذ بغض النظر عمن وراء هذه الكارثة المروعة فإن الإدارة الأمريكية قد أجادت استغلالها لإقناع الرأي العام الأمريكي بضرورة التحرك العسكري ضد الإرهاب... ومقاتلته في كل مكان من أجل المصالح العليا والأمن القومي للولايات المتحدة... وهكذا بدأت الحملة العسكرية ضد أفغانستان للقضاء على قواعد الإرهاب هناك... ثم بعد ذلك العراق

لاتخاذها ركيزة لتغيير النظم العربية الداعمة للإرهاب أو المسببة لوجوده والتشاره!!!

ثم كانت خارطة الطريق التي أرادت بها الإدارة الأمريكية إخماد الانتفاضة الفلسطينية وإجراء مصالحة بين الأطراف المتصارعة وإقامة الدولة الفلسطينية!!!

*****

تحطيم الاستبداد:

إن أصابع الاتهام تشير بلا شك إلى النظم الاستبدادية فهي بيت الداء وأساس العلة... وقد نهت عنها الأديان والرسالات السماوية وقاتلتها الشعوب والمجتمعات... وكان حصادها على مر التاريخ دماً وخراباً وبؤساً شهدناه في العهد القديم والجديد من هولاكو وتيمورلنك وشهريار إلى هتلر وموسيليني وسان لزار وغيرهم من مشاهير الطغاة ولا أعتقد أن مواطنا يرجو الخير لبلاده يضن بجهده عن مقاومة هذه النظم والدعوة إلى تغييرها... فهذا هو الطريق الوحيد لخلاص هذه الأمة من قيودها وانطلاقها في طريق البناء والتشييد... وليعى كل ذي بصر وبصيرة حجم الدمار الذي خلفته هذه النظم في بلادنا خاصة خلال النصف الثاني من القرن الماضي... هذا القرن الذي انتهى بانقلاب في كل شئ... وتقدم مذهل على دروب التكنولوجيا والتحرر الإنساني...

لقد دمرت هذه النظم إنسانية الإنسان... وحولته إلى عبد ذليل خانع لا يساوي شيئاً في موازين الإنسانية... لقد اخترقت وجدانه بتربية فاسدة!!! واخترقت عقله بتعليم متخلف... واخترقت مؤسساته بإدارة ساقطة واخترقت أحزابه ونقاباته بأساليب ملتوية!!! واخترقت اقتصاده بسياسات مختلة!!! فكانت النهاية في هذه الأنقاض المبعثرة لمجتمعات مهمشة يعيش أغلبها تحت خط الفقر ويقتات على القروض والمعونات الخارجية!!!

ووراء كل هذا البلاء كانت الولايات المتحدة ترعى مصالحها ومصالح إسرائيل... وإذا كانت الإدارة الأمريكية تدعى اليوم غيرتها على الديمقراطية ورغبتها في تحويل النظم العربية إلى الحكم الديمقراطي... فأمامها باب واسع يبدأ بالكف عن مساندة هذه النظم بالمال والسلاح والدعم المعنوي والدبلوماسي!!!

وعلى الأحزاب والقوى السياسية والنقابية يقع العبء الأكبر في التلاحم والتساند في جبهة واحدة من أجل دساتير ديمقراطية وقوانين ديمقراطية... تعيد السلطة للشعب وتتيح تداولها من خلال صناديق الانتخاب الحر النزيه... وتفتح الأبواب على الحريات العامة واحترام حقوق الإنسان... وتمكن من إرساء دعامات نظام اقتصادي قوى قادر على النهوض بأعباء التنمية تحت الرقابة الشعبية التي تفرضها المجالس النيابية...

*****

إعادة الديمقراطية:

وبلا تباهي ولا تحيز فمصر من أقدم دول العالم الثالث في التجربة الديمقراطية... ووراءها ممارسات ديمقراطية منذ عام ١٨٦٦ عندما تأسس أول مجلس نيابي في عهد الخديوي إسماعيل... وكانت معارضته لحكومة شريف باشا في فرض الضرائب والرقابة على الموازنة مضرب الأمثال إذ تمكن من إسقاط هذه الحكومة عندما رفضت فرض الرقابة البرلمانية على مالية الدولة!!! ثم كان مجلس شورى القوانين ثم مجلس شورى النواب... ثم دستور ١٩٢٣ ومجلسي النواب والشيوخ... وكان في مصر فوق ذلك مدارس صحفية كبرى تنير الرأي وتثري الجدل والنقاش حول قضايا الأمة... لقد أسقط ثوار يوليو هذه التجربة كلها... وغيبوها تماما بما لها وما عليها... وكان من المفروض أن يقيم الثوار حكماً ديمقراطياً سليماً خاصة بعدما سقطت الملكية وذهب الاستعمار وأصبح الشعب متطلعاً إلى نظام ديمقراطي صحيح يحمي الحريات ويحقق الرخاء... ولكن تنكبت الثورة طريقها وأكلت أبناءها وآلت لفرد واحد استبد بالحكم وأداره لحسابه!!! ونحن نعيش اليوم بقايا هذا الحكم... بكل تداعياته... وسلبياته وآلامه... وعلينا أن نبحث عن البديل في نظام ديمقراطي قويم ينهض بمصر من عثرتها... ويخرج بها إلى طريق الحرية والتقدم والرخاء...

ومصر قادرة على ذلك... وعندها من الخامات البشرية والذهنية ما يمكنها من الانتقال الآمن إلى الديمقراطية... والمعارضون لهذا الانتقال... وهم بالتحديد جماعة الحكومة وحزبها الوطني يبنون معارضتهم على أن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا الانتقال... ولا ندري

أي وقت يقصدون... فكل وقت يصلح للانتقال من الدكتاتورية إلى الديمقراطية إذا كانت الضرورة الملحة تمليه وتفرضه... ولا شك إننا اليوم بحاجة أكيدة لنظام ديمقراطي سليم بعدما اهترأ النظام الدكتاتوري الذي يحكمنا وأصبح واهناً ضعيفاً لا يقوى على مواجهة متطلبات المستقبل...

وقد كان للأحزاب والقوى السياسية توجهات وآراء في هذا التحول منذ نهاية عهد الرئيس السادات وبداية عهد الرئيس مبارك... كما صيغت العديد من المشروعات الإصلاحية وقدمت العديد من البرامج التي تستهدف الإصلاح السياسي ثم كانت مناسبة الحوار الوطني الذي دعا إليه الرئيس مبارك عام ١٩٨٦ وقد طالبت الأحزاب الرئيسية بإدماج موضوع الإصلاح السياسي في جدول الأعمال إلا أن الطلب قد رفض فانسحب حزب الوفد من الجلسة الأولى للحوار احتجاجا على هذا الرفض!!!

وكانت الأحزاب قد أعدت مشروعاً يتضمن النقاط الرئيسية للإصلاح السياسي المطلوب... كما أعد حزب الوفد دراسات مستفيضة حول الإصلاح السياسي تضمنتها نشرات الحزب وإصداراته المختلفة... فضلاً عن مشروع الوفاق الوطني الذي شارك في إعداده كافة الأحزاب والقوى الوطنية والشخصيات العامة والذي انتهى إلى شبه اتفاق عام حول الإصلاح السياسي ومرتكزاته الأساسية بعد أبحاث ومناقشات طويلة استغرقت أكثر من عام!!!

وكان التصور العام يفترض مرحلة انتقالية يجري التمهيد خلالها لهذا التحول بأسلوب تدريجي منظم... وهذه المرحلة الانتقالية تعتبر ضرورية لتجنب الطفرة والارتجال التي يمكن أن تؤدي إلى هزات أو انعكاسات غير محددة العواقب... كما أن هذه المرحلة ضرورية أيضاً لتهدئة المخاوف من رجحان كفة بعض التيارات السياسية الحاضرة في الساحة في الانتخابات إذا ما تمت في الظروف الراهنة وبغير مرحلة انتقالية تتهيأ فيها الأحزاب والقوى السياسية لخوض الانتخابات العامة في مناخ سياسي طبيعي تسوده الحرية والمساواة بين كافة الأحزاب والقوى السياسية...

وغني عن البيان أن المناخ السياسي الحالي قد أدى إلى اختلالات وتشوهات خطيرة في الحياة السياسية المصرية فقد أسهم قانون الأحزاب الحالي في ميلاد أحزاب ضعيفة وحجب أحزاب قوية كما أتاح للحكومة اختراق الأحزاب القائمة والسيطرة عليها من الداخل والتدخل في شئونها... بل وتصفيتها تماماً عند الضرورة!!! أما قانون الصحافة فقد مكن الحكومة من الإمساك بسلطة تأسيس الصحف أو منعها وبفضلها انتشرت الصحف الصفراء واختفت الصحف الجادة وصار حقل الإعلام كله خاضعاً للحكومة بعدما شددت قبضتها الاحتكارية على الإذاعة والتلفزيون!!!

وإذا انتقلنا إلى قانون مباشرة الحقوق السياسية بثغراته وعوراته لراعنا التهلهل والتفسخ الذي لحق بنصوصه وفتح الأبواب أمام الحكومة لتفعل بالانتخابات العامة ما تشاء!! فقد أسقطت عمداً من

بعض مواده الضوابط الدقيقة للعملية الانتخابية... والتي تحول دون تزوير إرادة الناخبين بفعل السلطة أو بفعل الناخبين أو المرشحين... كما غابت الضمانات والحصانات التي تتعلق بإشراف السلطة القضائية على العملية الانتخابية من بدايتها إلى نهايتها إشرافاً فعلياً يحول دون التلاعب بأصوات الناخبين!!! وفضلاً عن كل هذه النواقص فإن السماح بإجراء الانتخابات العامة في ظل قانون الطوارئ يفسدها تماماً... فقانون الطوارئ بما يتيحه من سلطات استثنائية في الاشتباه والقبض والتفتيش وتقييد الحريات إلخ هو سلاح مشهر في وجه المرشحين والناخبين يثير خوفهم ويهدد أمنهم حتى ولو لم تستخدمه السلطة في القمع والتنكيل!!!

أما الدستور الحالي فهو كبيرة الكبائر في هذا السياق الإصلاحي... فعلاقته بالديمقراطية تكاد تكون معدومة... فهو مزيج خاص جداً من فلسفة قمعية تحاول التمسح بالحرية وتنهج نهجين متناقضين في إطار واحد ووثيقة واحدة... وفي نصوص هذا الدستور تقرأ مبادئ الاشتراكية وقدسية القطاع العام ثم تقرأ أيضاً مبادئ الحرية الفردية وشموخ القطاع الخاص!!! وفي نصوصه أيضاً تجد السيادة للشعب... ولا سيادة لغير الشعب... ثم نجد بعد ذلك سلطات لرئيس الجمهورية في كل شئ!!! حتى القرارات بقوانين يملك إصدارها في غيبة البرلمان أو في حضوره... وفي نصوصه كذلك حق البرلمان في الاعتراض على الموازنة العامة للدولة... ولكن نجد أيضاً حق رئيس الجمهورية إذا ما رفض هذا الاعتراض الاحتكام للشعب وحل البرلمان وإجراء انتخابات عامة جديدة!!! أما إعلان حالة الطوارئ ومدها فقد أمسك الدستور

عن تنظيمها بدقة وإحكام حتى صارت حالة الطوارئ هي الأصل والعودة إلى القوانين الطبيعية هي الاستثناء!!!

بقيت القضية الأهم في هذا الدستور الشاذ وهي قضية انتخاب رئيس الجمهورية ونائبه... فاختيار المرشح للرئاسة يتم من خلال البرلمان... وانتخابه يتم عن طريق الاستفتاء العام وهذا مخالف تماماً للأعراف الديمقراطية... فانتخاب الرئيس يجب أن يجري بالاقتراع العام المباشر... ومن بين عدد من المرشحين وفقاً للشروط التي ينص عليها دستور ديمقراطي... أما أسلوب الترشيح من قبل البرلمان والذي يؤدى عملا إلى اختيار مرشح وحيد ثم طرح انتخابه في استفتاء عام فهو أسلوب لا تعرفه سوى النظم الدكتاتورية التي تتعمد تزوير الانتخابات لتأتي بمجلس موال لرئيس الدولة ليتولى هذا المجلس بدوره ترشيح رئيس الدولة دون غيره لرئاسة جديدة!!!

*****

إعلان الوفاق الوطني:

وتواجهنا مواقف وآراء تنطوي على الكثير من المغالطات التاريخية وكلها تصب في اتجاه واحد يؤكد عدم الوفاق أو الاتفاق بين أحزاب الأمة وقواها السياسية حول مضمون الإصلاح السياسي... ويصر على أن هناك خلافاً واسعاً بين الأطراف على الكثير من المبادئ والقواعد التي يجب أن يشملها الإصلاح... ويخلص أصحاب هذا الاتجاه إلى القول بأن الأحزاب والقوي السياسية المطالبة بالإصلاح عليها أولاً أن تجري حوارات واسعة حول العديد من القضايا وأن تنتهي فيها إلى رأي

موحد فتلك هي الخطوة الأولى في يقينهم التي يجب اتخاذها قبل فتح ملف الإصلاح السياسي الشامل...

وواضح أن أصحاب هذه المواقف والآراء وعلى رأسهم قادة الحزب الوطني ووزراء الحكومة يسعون بكل قواهم إلى المناورة لإغلاق باب الإصلاح السياسي ويجتهدون لإيجاد الذرائع وخلق المبررات لتعطيل مسيرة هذا الإصلاح أو إلغائها... وقد نجح هؤلاء فعلاً في وقف خطوات الإصلاح السياسي وإغلاق ملفه نهائياً مرة عندما أعلن الرئيس مبارك منذ عشر سنوات مشروع الحوار الوطني ثم استبعدت قضية الإصلاح السياسي من جدول أعمال المؤتمر... ومرة ثانية وثالثة ورابعة قبيل كل انتخابات عامة... فقد تحولت قضية الإصلاح السياسي إلى مطلب مشترك بين الأحزاب والقوى السياسية حتى أن بعض الأحزاب ومنها الوفد كانت تهدد بمقاطعة الانتخابات بسبب رفض الحكومة الدائم لهذا المطلب إلا أن أعداء الإصلاح السياسي كانوا دائماً بالمرصاد وكانت قواهم ومازالت تتجمع في أجهزة الإعلام... لتقدم أغرب المبررات والحجج حول رفض الإصلاح منها أن الحكومة مشغولة بالإصلاح الاقتصادي... وأن هذا الإصلاح يجب أن يتم أولاً!!! ومنها أن الوقت غير مناسب لإجراء الإصلاح السياسي إذ سوف يؤدي في روعهم إلى فتح أبواب الخلاف والفتنة بين الأحزاب والقوى السياسية إلخ إلخ...

الواقع الذي يتجاهله المعارضون بشدة للإصلاح السياسي أن مصر عرفت وتعرف أسس هذا الإصلاح... وأن الوفاق الوطني حول

الديمقراطية – وهو لب الإصلاح وأساسه – قائم بين الأحزاب والقوى السياسية المصرية منذ قرن من الزمان ومازال قائماً إلى الآن... وأن هناك العديد من الوثائق التي ترتبط بالوفاق الوطني بل هناك مشروع مكتمل الملامح للوفاق الوطني شاركت في صياغته كافة الأحزاب والقوى السياسية المصرية وكان لي شرف المشاركة في إعداده ممثلاً لحزب الوفد ولا بأس من أن أستعرض مع القارئ في السطور التالية الخطوط العريضة لهذا المشروع...

نحن الموقعين على هذا الميثاق ممثلو الأحزاب والقوى السياسية في مصر إيماناً منا:

* بحق الشعب المصري في نظام حكم ديمقراطي يكفل لمصر الاستقرار والتقدم.

* بحق الشعب في الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية وفي نظام سياسي يرتكز على احترام حقوق الإنسان الأساسية كما أوردها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والمواثيق الدولية الصادرة عن الأمم المتحدة.

* وبأن الحكومات إنما تباشر سلطاتها بإرادة الشعب التي يعبر عنها في انتخابات حرة نزيهة تجرى بصفة دورية في إطار الضمانات التي تكفل سلامتها وأن حق الشعب في تغيير الحكومة بالطريق الديمقراطي هو حق مقدس لا يجوز المساس به أو الانتقاص منه.

* وبأن الواجب الأول لأية حكومة هو حماية المبادئ الديمقراطية ، وحقوق الإنسان الأساسية وأن عليها حماية حريات الأفراد

الشخصية والسياسية وعلى الأخص ما تستوجبه هذه الحريات من مبادئ التعددية الحزبية والفكرية وتداول السلطة والاختلاف معها بالطرق السلمية.

* وبأن العدالة الاجتماعية كما أقرتها الشرائع السماوية والعهد الدولي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية ضرورة لازمة لاستكمال الديمقراطية وحقوق الإنسان.

* بوحدة الشعب المصري وتكافله عبر تاريخه الطويل دون ما تفرقة بين أفراده في الحقوق والواجبات الأساسية بسبب الدين أو الجنس أو العرق أو اللون.

* وبأن ما تواجهه مصر من مشكلات داخلية وتحديات خارجية يفرض نبذ الخلافات القائمة بين قوى الأمة ويستوجب العمل على توحيد صفوفها وجمع كلمتها حتى تستكمل قدرتها على حل هذه المشكلات والتغلب على تلك التحديات.

إيماناً منا بكل ذلك واقفنا على الالتزام بمبادئ هذا الميثاق تحقيقاً للمصالحة الشعبية بين كافة الاتجاهات الفكرية واستهدافا لوفاق وطني دون أن يخل ذلك بحق كل قوة من القوى الوطنية في أن تضمن برامجها السياسية ما تراه من مبادئ بما لا يتعارض مع الأسس التالية:

أولاً: نظام حكم عماده النزاهة وسيادة القانون واحترام الحريات.
ثانياً: رئاسة الجمهورية بالاقتراع السري المباشر.
ثالثاً: احترام التعددية الحزبية وتداول السلطة.

رابعاً: تقييد استخدام قانون الطوارئ.
خامساً: ضمانات سلامة الانتخابات.
سادساً: كفالة الحريات الشخصية والحقوق الأساسية للمواطنين.
سابعاً: إقرار حق الشعب في التجمع والتعبير عن رأيه.
ثامناً: استكمال استقلال القضاء والنيابة العامة.
تاسعاً: كفالة استقلال الجامعات وتحرير النشاط الجامعي.
عاشراً: كفالة الرعاية الاجتماعية والتكافل وتكافؤ الفرص.
أحد عشر: كفالة الحقوق الاقتصادية والمالية للمواطن.
ثاني عشر: ضرورة صياغة دستور جديد.

المشاركون في إعداد مشروع الميثاق

م. إبراهيم شكرى	د. إبراهيم دسوقى أباظة
م. أبو العلا ماضى	أ. حسين عبد الرازق
د. سعيد النجار	المستشار. مأمون الهضيبى
د. محمد حلمى مراد	أ. مصطفى كامل مراد
د. ميلاد حنا	المستشار. يحيى الرفاعي

* * *

... والآن كلمة أوجهها لكل هؤلاء الذين يستغلون جهل الأمة بظروف مرحلة وحقيقة نظام، إن كل الطرق ممهدة لإصلاح سياسى شامل يفرض الشفافية ويوقظ الوعى ويعيد للشعب إرادته.

وإلا فلنترقب صدمة ثالثة... وربما أخيرة!!

فهرس

قبل أن تقرأ ٥

تمهيد " من الصدمة العربية الأولى إلى الثانية " ٧

- الحقائق الغائبة ١٥
- اليقظة الإسلامية ١٨
- نجم القومية الجديد ٢٠
- الكويت والدور المصرى ٢٢

الفصل الأول : " قبل الصدمة "

- لا لصدام و لا لأمريكا ٢٧
- صدام صناعة أمريكية ٣٢
- حكم الطغاة و حكم الشعوب ٣٧
- لعبة التسلح ٤٢
- ديمقراطية العم سام ٤٧
- قليل من الحكمة ٥١
- إنه الإسلام السياسي ٥٦
- الاعتـــــذار ٦٠
- المكارثية الجديدة ٦٥
- الحقيقة الحاضرة ٧٠

الفصل الثاني: " الصدمة "

- جيوش الهـــواة ٧٧
- الاستفاقـــــة ٨٢
- من يعلق الجرس ٨٦
- هؤلاء المحللون ٩٠
- صدام والصدمـــة ٩٥
- هل وصلت الرسالـــة ١٠٠
- حزب أم عصابـــة ١٠٤
- الرفيق المؤمن ١٠٨
- التمويـــــه ١١٢

الفصل الثالث: " بعد الصدمة "

- لغز صدام ١١٩
- النبي الكاذب ١٢٤
- مدرسة التضليل ١٢٨
- ثقافة التعتيم ١٣٤
- الهدامون يتكلمون ١٣٨
- بين الصدمتين ١٤٣
- بالعلم لا بالقوة ١٤٩
- الديمقراطية أولاً ١٥٣
- دروس فى الديمقراطية ١٥٧
- أمريكا و صناعة الاستبداد ١٦١
- صحيفة سوابق ١٦٥
- الديمقراطية إرادة و قدرة ١٦٩
- زعـــامة القـــوة ١٧٣
- التكتل يا عرب ١٧٩

بعد أن قرأت ١٨٣
- تحطيم الاستبداد ١٨٧
- إعادة الديمقراطية ١٨٩
- إعلاء الوفاق الوطني ١٩٣

رقم الإيداع ٢٠٠٣ / ١٣٣١٨
الترقيم الدولى ٣-٠٩٥-٢٠٩-٩٧٧ I.S.B.N.